قميص مشجر

محمد شريف

قميص مشجر

تأليف

محمد شريف

التنسيق الداخلي

يوسف الفرماوي

رقم الإيداع : 2021/5423

الترقيم الدولي: 978-977-90-8629-3

التوزيع

مؤسسة الضحى للنشر الرقمي والورقي

هاتف وواتس: 01050706050 - 2+

بريد إلكتروني : aldu7a.com@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.aldu7a.com

© جميع الحقوق محفوظة للكاتب

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو إعادة تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من الكاتب.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage, without the prior permission in writing of the author.

قميص مشجر

تأليف

محمد شريف

القاهرة 2021

قميص مشَجَّر

أطَّل علينا عمرو دياب في صيف عام 1991 بصورةٍ له وهو يرتدي قميصًا مشجرًا على غلاف ألبوم «متخافيش» الذي حقق نجاحًا باهرًا لم يقتصر فقط على المبيعات الكبيرة، بل امتد إلى إقبال الشباب على شراء قميص يشبه قميص النجم الشاب.

استعار أخي الأكبر الألبوم من أحد أصدقاءه قبل أن يذهب لأبي، الذي كان يقرأ جريدة في صالة شقتنا المتواضعة، ويقول له بتردد:

- بابا.. عايز أشتري قميص جديد.

- قميص إيه؟

- قميص مشجر.

- مشجر؟!

- أيوة.. زي بتاع عمرو دياب.

أخذ أبي نفسًا عميقًا قبل أن يسأله:

- لازم يعني؟

صمَت أخي؛ فترجم أبي صمته لـ «نعم»، وقال له مستسلمًا:

- طيب.

ولأنني اعتدت على تقليد أخي، طلبت منه أن يقنع أبي أن يشتري لي قميصًا مشجرًا مثلما سيشتري له.

وخرج أخي مع أبي مساء يوم خميس، لم أذهب فيه إلى مدرستي الابتدائية، وعادا في وقتٍ متأخر بعدما اشتريا ثلاثة قمصان مشجرة، أحدها لي.

ولأنني لم أكن أخرج كثيرًا، ولأنني كنت سعيدًا بالقميص، قررت أن أذهب به إلى المدرسة يوم السبت.. وليتني ما فعلت.

***

كنت قد اعتدت في الأيام الماضية على الوصول إلى المدرسة بعد انتهاء طابور الصباح، إلا إنني في ذلك اليوم كنت متلهفًا على الوصول مبكرًا لكي يرى زملائي القميص، فوصلت بعد بدء الطابور بنحو عشر دقائق لأجد نظرات زملائي تحاصرني بعيون محملقة ترجمتها على الفور لإعجاب بالقميص الجديد.

لم يُعَلّق أي منهم على القميص وإن ظلت نظراتهم مصوبةً إليَّ حتى بدأت أشعر بالتوتر. وما هي إلا بضع دقائق حتى فوجئت بـ(أبلة فاطمة)، مُدرسة التربية الرياضية، وهي تندفع بين صفوف التلاميذ وتمسك بعضهم من ملابسهم وتجذبهم بقسوة ليخرجوا من الطابور وتشير إليهم بعصبية لكي يتوجهوا ناحية أحد أسوار المدرسة وهي تتمتم بكلمات لم أسمعها وإن أثارت توتري أكثر.

اعتدت أن أرى (أبلة فاطمة) وهي عابسة الوجه، إلا إنها بدت لي وقتها عابسةً أكثر من المعتاد، فنظرت إلى زملائي محاولًا فهم ما يحدث، ولم أجد منهم سوى نظرات غير مفهومة لقميصي الجديد. وعندما وصَلَت (أبلة فاطمة) إلى طابورنا كنت قد فهمت.. وعندما وقعت عيناها الغاضبة عليَّ، نظرت إلى الأرض مستسلمًا، فاقتربت مني وصَوَّبَت إليَّ نظرات أفزعتني وقالت باستنكار وسخرية:

- وده إيه ده بقى إن شاء الله؟

من شدة ارتباكي لم أستطع الرد، فتابَعَت متسائلة:

- ده قميص عمرو دياب؟

استجمعت بعضًا من شجاعتي وقلت لها بصوت متحشرج:

- أيوة.

قالت بسخرية:

- وجـاي المدرسـة بقميـص عمـرو ديـاب ليـه يـا ضنايـا؟ عنـدك حفلـة؟!

ضحك زملائي بسخرية، فصاحت بهم:

- بس. مش عايزة أسمع نفس.

والتفتت لي وقالت:

- إحنـا مـش أكدنـا يـوم الخميـس إن ماحـدش ييجـي بلبـس مخالـف؟

قلت لها برجاء:

- ما أنا كنت غايب الخميس.

ردت بلهجةٍ متوعدة خفق لها قلبي:

- آه. وكمان بتغيـب مـن المدرسـة؟ طـب هـو عمـرو ديـاب بيقـول إيـه في الشريـط الجديـد؟

لم أفهم ما تعنيه، فالتزمت الصمت وقد غلبني ارتباكي، فقالت:

- بيقول متخافيش، صح؟

قلت لها وأنا أحاول أن أفهم:

- آه.

- طب يا حبيب قلبي أنا كمان بقول لك متخافش، هتروح تقف مع زمايلك الحلوين اللي هناك دول، وهما 5 عصيان هتاخدهم بمناسبة القميص الجديد. ولا أقول لك.. خليهم 10 عشان بصراحة القميص عاجبني.

لم أجد ما أفعله سوى أن أتوجه إلى حيث يقف التلاميذ المخالفون؛ فجرجرت قدميَّ وتوجهت إليهم مشيعًا بنظرات الشماتة من زملائي الذين كنت أنتظر منهم نظرات إعجاب، ورغم شعوري بالإحباط إلا إن كلمات أغنية عمرو دياب كانت تتردد في أذنيَّ وأنا في طريقي للانضمام للمخالفين، فسمعته يقول بصوت جهوري:

- متخافيش أنا مش ناسيكي، متخافيش لو مين ناداني، مش حعيش من غير عينيكي، مش حعيش مع حب تاني تاني.

واختلطت كلمات الأغنية المبهجة، بكلمات (أبلة فاطمة) الساخرة، فأفلتت مني ابتسامة كادت تختلط بالدموع التي بذلت مجهودًا كبيرًا لكي أمنعها من الهروب من عيني التائهتين.

تمت

عباس المجروح

انتابتنـي بالأمـس حالـة حنين لأيـامٍ مضـت، ففتحـت موقـع (يوتيـوب) عـلى (الإنترنـت)، وكتبـت في خانـة البحـث (محمـود سـعد على ورق)، ووجـدت مـن بـين الفيديوهـات التـي ظهـرت لي في نتائج البحـث، مقطـع فيديـو مـن حلقـة قديمـة استضاف فيهـا الإعلامـي محمـود سـعد، الفنـان فـاروق الفيشـاوي.

شـاهدت مقطـع الفيديـو وبعـد انتهـائي منـه بأقـل مـن دقيقـة، أخـذت أسـأل نفـسي سـؤالًا:من هـذه الفتـاة التـي قـد تتصـل بذلـك الشـخص الـذي أسـمى نفسـه «عبـاس المجـروح»؟!

سـألت نفـسي هـذا السـؤال وأنـا أشـعر بالسـخرية مـن ذلـك «العبـاس» الـذي كتـب رقـم هاتفـه كتعليـق عـلى مقطـع الفيديـو عـلى أمـل أن تتصـل بـه فتـاة مـا ويتعارفـا، ولم أتمالـك نفـسي وضحكـت عليـه وأنـا أتخيلـه وهـو ينتظـر وينتظـر دون جـدوى.

وبقـدر مـا شـعرت بالسـخرية منـه، بقـدر مـا أشـفقت عـلى انتظاره الـذي سـيطول دون فائـدة. ورغـم إشـفاقي عليـه قـررت أن أكتـب هـذه القصـة عنـه عندمـا أجـد لـدي رغبـة في الكتابـة.

انتهيـت مـن كتابـة القصـة، وأسـتعد الآن لنشرهـا عـلى موقـع التواصـل الاجتماعـي (فيسـبوك).. أسـتعد لفعـل ذلـك في نفـس الوقـت الـذي يتحـدث فيـه عبـاس مـع فتـاة اتصلـت بـه بعدمـا رأت تعليقـه مثلـما رأيتـه.

تمت

شيفت مسائي

«الكتابة ضايعة»..

فوجئت بهذه العبارة من عماد سمير، مدير «الشيفت» المسائي، الذي أطل علينا برأسه، كالأفعى السامة، في حجرة الاجتماعات التي كنا نتناول بها طعامنا، وجبة الكشري المعتادة، فنظرت إليه بوجهٍ مكفهر والطعام يقف في فمي وأجد صعوبة بالغة في ابتلاعه.

***

كنت قد عُينت محررًا بقسم (التوك شو) في هذا الموقع الإخباري المشهور قبل نحو شهرين وبعدما كنت أعمل في موقع إلكتروني ترفيهي لم نكن نهتم فيه بقواعد العمل الصحفي بشكلٍ كبير، فلم نكن نُحاسَب على جودة المحتوى أو كيفية صياغة الأخبار بقدر ما كنا نُحاسَب على عدد المتفاعلين معها.

- أنت مش مطلوب منك تكتب أخبار، هتجيب الفيديو من اليوتيوب وتحطه ع الموقع بعنوان يشد بس.

قالها لي أحمد مجدي، أحد مديري التحرير بالموقع، وهو يشرح لي طبيعة عملي الجديد بعدما قررت الشركة إغلاق الموقع الترفيهي الذي كلف الشركة مبالغ طائلة ولم يدر عليها أرباح. وعندما قال لي ذلك شعرت أن الأمر ليس بالصعوبة التي تصورتها، ورغم ذلك قَبِلت وأنا أشعر ببعض القلق الذي اصطحبني دائمًا مع أي تجربة جديدة.

استقبلني حسن شكري، زميلي في القسم الجديد، بحفاوة بالغة بعدما قدمني له عصام صبري، مدير القسم:

- محمد شريف هيبقى معاك من النهارده، عايزك تعلمه كل حاجة في الشغل.

صافحني حسن شكري بابتسامة عريضة تعلو وجهه الأسمر البشوش وقال:

- يا أهلًا يا أهلًا.. إن شاء الله هتبقى مبسوط معانا.

- أكيد طبعًا إن شاء الله.

اصحبني حسن شكري إلى مكتبه وأحضر لي مقعدًا للجلوس بجانبه، وقال لي وهو مازال مبتسمًا:

- بص مش عايزك تقلق من أي حاجة، أهم حاجة لازم تعرفها إن اللي شغالين جوة دول كلهم بهايم، فلو حد قال لك كلمة كده ولا كده ما تعملش عقلك بعقله.

ضحكت بتحفظ، فتابع:

- بُص، القسم بتاعنا ده مهم جدًا، إحنا بنعمل مش اقل من 4 مليون مشاهدة في الشهر، وإحنا كلنا 3 في القسم، أنا وأنت وداليا، بس داليا شغالة الصبح مالناش دعوة بيها. أحسن حاجة بقى إننا مش بنكتب أخبار، إحنا بنختار عنوان بس ونرمي الفيديو ع الموقع، فاللي داخل عندنا مش داخل يقرأ، داخل يتفرج.

شعرت بالطمأنينة من كلامه، وبدأت في ممارسة عملي في اليوم التالي تحت إشراف مدير القسم، وجرت الأمور بأفضل مما توقعت لمدة شهرين تقريبًا، قبل أن يفاجئنا مدير الموقع بقرارٍ جديد.

أرسل لنا مدير الموقع رسالة على البريد الإلكتروني يطالبنا فيها

بعدم نشر أي فيديو بدون كتابة وصف له، وهو ما يعني فقد أهم ميزة للعمل بقسم «التوك شو»، وبذل مجهود مضاعف.

أصابني الغم ولكنني لم أجد مفرًا من الالتزام بالتعليمات الجديدة، وبدأت في كتابة الأخبار بنفس الصياغة الضعيفة التي كنت قد اعتدت عليها في الموقع السابق.

***

كنت قد شعرت من أول مقابلة لي مع عماد سمير أنه لا يحبني، ولكنني استنكرت ذلك الشعور وحاولت أن أنزعه من رأسي، إلا إنني تأكدت في هذا اليوم أنني لم أكن مخطئًا، فقد كان واضحًا أنه يتعمد إحراجي أمام جميع الزملاء، فعندما نظرت له بتمعُن لاحظت لمعة في عينيه وكأنه عثر على كنز ثمين، ومن شدة ارتباكي ومشاعري المتضاربة بين الخجل أمام الزملاء، والدهشة من كراهيته لي بدون سبب، لم أستطع أن أرد. ويبدو أن عصام، مدير القسم، شعر بي وأراد أن ينقذني، فقال له:

- طب يا أستاذ عماد أنا هشوف الموضوع ده، هنخلص بس الأكل وأنا هقعد معاه ونظبط الدنيا ما تقلقش.

ويبدو أن عماد سمير كان يطمع في تسديد المزيد من اللكمات لي أمام الزملاء، فنظر لعصام بعينين غير راضيتين قبل أن يقول له بلهجة تعمد أن تُظهر عدم ثقته بي:

- ماشي.

انصرف عماد وتركني بعد أن أفقدني شهيتي للطعام، وجعلني أشعر بالخزي أمام الزملاء؛ فقال لي عصام:

- متقلقش، سيبك منه.

كانت ثقافة الشركة -في ذلك الوقت- تفرض على جميع العاملين بالموقع تبادل الاحترام فيما بينهم، وهو ما وقف عائقًا أمام عماد سمير ومنعه من الاستمرار في مضايقتي، بالإضافة إلى أنني تمكنت بعد فترة قصيرة من تطوير أسلوب كتابتي ليصبح مقبولًا لدرجة أن عماد نفسه قال لي ذات يوم:

- بس إحنا بقينا بنكتب تمام دلوقت.

قالها وهو يبتسم كمن يمزح مع صديق له، ورغم فشله في إخفاء مشاعر الكراهية التي يكنها لي، إلا إنني كنت مضطرًا للابتسام في وجهه؛ فقلت له:

- الحمد لله، ربنا يخليك.

ولأنني لم أسامحه؛ فقد وجد نفسه بعد مرور بضعة أشهر يقف منكسرًا أمام رئيس التحرير الجديد الذي أوكل له الملياردير المعروف، صاحب الشركة، إدارة الموقع لكي يستطيع أن يجلب له المزيد من الإعلانات، وهو الإعلامي المشهور الذي قدم أكثر من برنامج على شاشة التلفاز.

جاء حمدي عبدالجواد، رئيس التحرير الجديد، مع حاشيته ليدير الموقع وقد عقد النية على «تطفيش» الصحفيين القدامى منه لكي يستطيع السيطرة على المكان ويفعل ما يحلو له.

وجد عماد سمير مضايقات غير مبررة من حمدي وأفراد حاشيته، وعندما حاول الاعتراض وجد نفسه يقف أمامه في مكتبه كعصفور مُبتل يرتجف تحت الأمطار.

- لـو سـمحت يـا أسـتاذ حمـدي، يـا ريـت طريقـة الـكلام تكـون أفضـل مـن كـده شـوية.

قالهـا عـماد بصـوت مرتبـك، في محاولـة للحفـاظ عـلى مـا تبقـى مـن كرامتـه التـي دُهسـت بأحذيـة حمـدي ومـن قبلـه مسـاعديه، فـرَّد حمـدي بغضـب:

- انت هتعلمني أتكلم إزاي ولا إيه؟!

تراجع عماد وقال بصوت مرتجف:

- يا أفندم لأ طبعًا، بس أنا قصدي...

قاطعه حمدي صائحًا:

- بلا قصدك بلا زفت، يلا على شغلك.

لم يجـد عـماد بُـدًا مـن الاستسـلام، فتوجـه لبـاب المكتـب بخطـواتٍ متلعثمـة قبـل أن يسـتوقفه حمـدي:

- اسـتنى. اعمـل حسـابك أنـت بعـد كـده هتشـتغل شـيفت الأوفـر نايـت بـس، يعنـي مـش هتبـات في بيتكـوا تـاني.

فوجـئ عـماد بمـا قالـه حمـدي، ولكنـه لم يملـك شـجاعة كافيـة للاعـتراض عـلى هـذا القـرار الظـالم الـذي سيضطره إلى العمـل كل يـوم مـن السـاعة الثانيـة عـشر صباحًـا وحتـى الثامنـة أو التاسـعة صباحًـا؛ فانـصرف مـن أمامـه وهـو يلعنـه بينـه وبـين نفسـه.

مـرت أيـام دون أن أرى عـماد سـمير، وعندمـا سـألت عـن السـبب عرفـت مـن بعـض الزمـلاء مـا فعلـه معـه حمـدي عبدالجواد؛ فشـعرت بالسـعادة والامتنـان لحمـدي الـذي يظهـر عـلى شاشـة التلفـاز ويدَّعـي

الفضيلة والنزاهة ويطالب المسئولين في الدولة بالتحلي بالعدالة والشفافية.

بعد نحو شهر قابلت عماد، في ليلة شديدة البرودة، أمام مصعد العمارة التي تقع الشركة في الطابق الثالث منها.. كنت قد انتهيت من العمل وانصرفت ونزلت على سلم العمارة فقابلته يقف أمام المصعد ينتظره.

نظرت له بدهشة وقد بدا شاحب الوجه، من كثرة السهر، وقال لي بصوت مُنهك:

- عامل إيه؟

- الحمد لله.

- الشغل تمام؟

- آه الحمد لله.. ماشية.

ابتسم ابتسامة مريضة، وقال:

- يا رب تفضل ماشية.. خلي بالك من نفسك ولو احتجت أي حاجة كلمني، وابقى البس كوفية وبلوفر تحت الهدوم بعد كده عشان الجو تلج برة.

شكرته وتركته لكي لا يتأخر على موعد «الشيفت»، وانصرفت وأنا أشعر بتعاطف حقيقي معه.

تمت

الجاسوس

بـدأ ذلـك اليـوم مـن أيـام شـهر ديسـمبر البـاردة كغـيره مـن الأيـام الدراسـية الثقيلـة، فقـد وصلـت مـع اثنـين مـن أصدقـائي، محمـد صفـوت وسـامح عبدالمجيـد، إلى مدرسـتنا الإعداديـة متأخريـن كالعـادة وبعـد انتهـاء طابـور الصبـاح، وعندمـا دخلنـا الفصـل اسـتقبلنا وصلـة «التهزيـق» مـن أسـتاذ عـوض، مُـدرس العلـوم، ونحـن نبتسـم بـلا مبـالاة.

ومـرت الحصـة الأولى والثانيـة بشـكلٍ روتينـي، وجـاءت الثالثـة لتدخـل الفصـل «ميـس» سـهام، مُدرسـة اللغـة الإنجليزيـة، والتـي طلبـت منـي في منتصـف الحصـة أن أصعـد للـدور الثـاني لأحـضر لهـا العصـا مـن أسـتاذ سـيد، الأخصـائي الاجتماعـي، الـذي وجـدت مكتبـه مغلقًـا.

عُـدت إلى الفصـل بوجـهٍ شـاحب وأخبرتهـا أنـه غـير موجـود بمكتبـه، وجلسـت في مـكاني بجانـب زميـلي، رامـي أبوالعـلا، الـذي قـال لي هامسًـا بعـد بضـع دقائـق مـن الصمـت:

- مالك؟

- أستاذ سيد ماجاش.

- وإيه يعني؟

- لاقيـت مكتبـه مقفـول، وشـوفت الـواد محمـد عبدالغنـي بتـاع تانيـة أول وأنـا نـازل، ولمـا سـألته إذا كان شـافه النهـارده، قـال لي إنـه اتقبـض عليـه.

التفت لي بدهشة وسألني:

- نعم؟ اتقبض عليه ازاي؟ وليه؟

التزمت الصمت لنحو دقيقة وأنا مرتبك، فقال لي رامي:

- في إيه؟

- الواد عبدالغني بيقول إنه اتقبض عليه عشان اكتشفوا إنه جاسوس.

فوجئ رامي من كلامي وصاح بصوت شبه مسموع:

- جاسوس؟!

سَمِعَت «ميس» سهام صوته، دون أن تميز الكلمة، فصاحت فيه بغضب:

- رامي.. قوم تعالى.. Come here.

نهض رامي من مكانه وتوجه إليها؛ فقالت له وهي تشير بازدراء إلى سلة المهملات الموجودة بجانب باب الفصل:

- أقف لي هنا ومش عايزة أسمع نَفَس.. Silent.

مرت الدقائق المتبقية من الحصة كساعاتٍ ثقيلة تخيلت فيها «ميس» سهام كضفدعة تسابق أرنبًا تناول منشطات جنسية مستوردة. وأخذت أتبادل نظرات حائرة مع رامي الذي ما إن انتهت الحصة حتى أقبل عليَّ مسرعًا وقال:

- أنت متأكد من الموضوع ده؟

- الواد عبدالغني بيقول إنه ساكن في العمارة اللي جنبه وشافه امبارح بالليل وهو بيتقبض عليه.

سمع محمد صفوت حوارنا فتدخل صائحًا:

- مين ده اللي اتقبض عليه؟

رد رامي على الفور:

- أستاذ سيد.. طلع جاسوس لإسرائيل واتقبض عليه امبارح بالليل.

قال سامح عبدالمجيد بذهول:

- جاسوس؟! يا نهار اسود!

قلت لهم بارتباك:

- إحنا كده ممكن نروح في داهية.. ده إحنا كنا بنقعد معاه كتير.

بُهتوا جميعًا والتزموا الصمت الذي قطعه رامي قائلًا:

- تصدق أنا من زمان ماكنتش مستريح له.. كنت كل ما أركز في وشه بالنضارة بتاعته دي أحس إنه يهودي و...

قطع حديثنا دخول أستاذ نبيل، مُدرس الرياضيات، الفصل؛ فجلس كل منا في مكانه.

مرت بضع دقائق وأنا لا أستطيع التركيز في الدرس الذي يشرحه المُدرس، وانتابتني مشاعر مختلطة بين الحيرة والقلق والحزن. وقطع عليَّ أفكاري رامي الذي قال لي هامسًا:

- مش عارف إحنا ازاي ما أخدناش بالنا قبل كده وكنا بنتعامل معاه عادي؟!

- هناخد بالنا إزاي؟! هو ماكنش باين عليه حاجة أصلًا..

أخصـائي اجتماعـي وعنـده تاكـسي شـغال عليـه بعـد الضهـر عشـان يحسـن دخلـه.

- ما هو التاكسي ده يا عبيط.. جايبه تمويه.

- تمويه؟

- آه طبعًـا.. وفي حاجـة كـمان، ركبـت معـاه قبـل كـده وحبيـت أشَـغَّل الكاسـيت بتـاع التاكـسي، وأول مـا مديـت إيـدي ع الكاسـيت اتخـض وزعَّـق فيَّـا.

- وبعدين؟

- أكيد الكاسيت ده كان جهاز إرسال.

حدقـت فيـه بعينين فزعتـين وابتلعت ريقي بخوف قبـل أن أقول له:

- يـا نهـار اسـود، ده أنـا ركبـت معـاه قبـل كـده وقلـت لـه إن أبويـا شـغال ظابـط، وكنـت واخـد راحتـي في الكلام.

قال لي بقلق واضح:

- قلت له أي معلومات؟

- مش فاكر.. بس كنت بتكلم عادي.

- عادي؟! ما هو العادي ده هو اللي...

وقطـع كلامـه عندمـا شـهقت مذهـولًا وأنـا أنظـر في اتجـاه بـاب الفصـل؛ فالتفـت إلى حيـث أنظـر وفتـح فمـه ببلاهـة ولم يحرك سـاكنًا..

كان أسـتاذ سـيد قـد دخـل للتـو مـن بـاب الفصـل ووقـف بالقـرب منـه مـع أسـتاذ نبيـل الـذي سـأله:

- إيه كنت فين من الصبح؟

- أبـدًا، كنـت في الإدارة التعليميـة بخلـص شـوية إجـراءات كـده عشـان المسـابقة.

- هتعملوها خلاص؟

- آخر الشهر إن شاء الله.

- طب ع البركة.

تمت

قهوة سُكَر زيادة

قابلته مساء ذلك اليوم من أيام سبتمبر الحارة بأحد المقاهي الشعبية بعد فترة انقطاع دامت لنحو عامٍ ونصف العام وبعدما كنت أقابله بشكلٍ شبه يومي في الشركة التي كنا نعمل بها وتركناها في نفس الشهر.

كان من الطبيعي أن يسأل كل منا الآخر عن أحواله، وعندما سألني أجبت بإجابة روتينية؛ فقلت باقتضاب:

- الحمد لله. ماشية.

وجاء دوري لأسأله، وعندما فعلت أخذ يشكو لي من ارتفاع الأسعار، وكثرة المصاريف، وضيق ذات اليد؛ فشعرت بتعاطف حقيقي معه وتمنيت لو كان بإمكاني مساعدته.

وبينما أنا أفكر بيني وبين نفسي في طريقة أستطيع أن أساعده بها، رن هاتفه المحمول بنغمةٍ مألوفة؛ فأخرجه من جيب بنطاله ونظر إلى شاشته ولم يرد.

سألته بدافع الفضول:

- الأيفون ده أصلي؟

أجابني بثقة حسدته عليها:

- آه طبعًا.

اعتقدت أنه إصدار قديم من الهاتف، ولكنه فاجئني عندما سألته عن الموديل، فقال لي:

- أيفون 11 برو ماكس.

وهنا شعرت بالتعاطف معه أكثر من أي وقتٍ مضي.

تمت

الامتحان

- وليـك نفـس تـروح تلعـب؟! ده بـدل مـا تعيـط عـلى خيبتـك؟! مـش مكسـوف مـن نفسـك؟!

هكـذا بـدأ أبي وصلـة توبيـخ عنيفـة لي يـوم امتحـان العلـوم الـذي جـاء أصعـب مـما تخيـل جميـع الطـلاب. وأمـام وصلـة التوبيـخ التـي كنـت متأكـدًا مـن أنهـا سـتمتد لعـدة دقائـق لم يكـن أمامـي سـوى الهـروب منهـا بخيـالي، ليـس فقـط بهـدف الهـروب ولكـن لمحاولـة فهـم سـبب حالـة الغضـب العارمـة التـي تملكـت مـن أبي وجعلتـه يوبخنـي بهـذا الشـكل العنيـف.

***

بـدأ اليـوم كغـيره مـن أيـام الامتحانـات بمـزاج متعكـر مـن النـوم المتقطـع والقلـق الطبيعـي لطالـب في الصـف الثـاني الإعـدادي كان لديـه طمـوح بالحصـول عـلى مجمـوع يزيـد عـلى تسـعين بالمائـة رغـم أنـه لم يجتهـد بالقـدر الـكافي.

خرجـت مـن المنـزل في الثامنـة صباحًـا ومـررت بمنزل أحـد أصدقائي، ومنـه إلى منـزل صديـق آخـر قبـل أن نتوجـه إلى المدرسـة التـي تبعـد عـن المنـزل بنحـو عـشر دقائـق سـيرًا عـلى الأقـدام، وفي الطريـق عـبَّر كل منـا عـن قلقـه المعتـاد مـن الامتحـان، ولكننـا حاولنـا –في نفـس الوقـت– أن نُطمـئن بعضنـا بعضًـا.

وصلنـا إلى المدرسـة وقـد هدأنـا وتناسـينا الامتحـان وأخذنـا نمـزح كعادتنـا مـع بعضنـا ومـع باقـي الزمـلاء؛ حتـى جـاء موعـد الامتحـان فتوجهنـا إلى اللجـان وقـد بـدأ القلـق يتسـلل إلينـا مـن جديـد.

جلسـت في اللجنـة، وبمجـرد أن تسـلمت ورقـة الأسـئلة نظـرت فيهـا

ومن شدة خوفي رأيتها ضبابية، ولم أستطع تمييز أي كلمة مكتوبة فيها؛ فأخذت نفسًا عميقًا ونظرت حولي وانتظرت لنحو دقيقتين قبل أن أنظر إليها من جديد، لأرى الأسئلة بصعوبة.

فتحت ورقة الإجابة وبدأت أتذكر ما حفظته من المادة، وعندما انتهيت من الإجابة على السؤال الأول، الذي لم يكن صعبًا، بدأ القلق ينصرف عني.

ويبدو أن القلق افتقدني سريعًا؛ فعاد إليَّ مجددًا عندما قرأت السؤال الثاني الذي قررت تأجيل الإجابة عليه عندما وجدته صعبًا؛ ولكنني اضطررت للعودة إليه سريعًا بعدما وجدت أن الثالث والرابع أصعب منه بكثير.

قرأت السؤال الثاني بتركيزٍ أكثر وتأكدت أنه صعب فعلًا، وقبل أن أحاول الإجابة عليه نظرت حولي فوجدت الوجوه شاحبة بعضها يتصبب عرقًا -رغم برودة الجو- فأدركت أن المشكلة ليست مشكلتي وحدي؛ فشعرت ببعض الطمأنينة وبدأت في الإجابة على الأسئلة بقدر ما استطعت.

انتهى الامتحان وخرجت من اللجنة ملتزمًا الصمت وأنا أترقب رأي زملائي فيه. ويبدو أن الزملاء اتخذوا نفس قراري، فأخذنا ننظر لبعضنا البعض ملتمسين ولو كلمة.

- امتحان ابن ستين كلب.

قالها زميلنا المتفوق أحمد فكري؛ فأسرعنا إليه بخطواتٍ متلعثمة وكدنا نحتضنه لقطعه حالة الصمت المخيفة التي التزمنا بها، وقلت له بلهفة:

- امتحان صعب، صح؟

- جدًا.

أردت أن أسمع منه المزيد؛ فقلت له بخُبث:

- في مستوى الطالب اللي هو فوق المتوسط ده، صح؟

رد عليَّ باستنكار:

- فوق متوسط مين؟! الامتحان ده عايز واحد عبقري عشان يحله، أنا أتحدى أي حد يقول إنه حل كل الأسئلة صح.

أردنا أن نحمل أحمد فكري على الأعناق ونطوف به في جميع أرجاء المدرسة، ولكننا فضَّلنا الخروج والابتعاد عن المكان المشئوم حتى نهدأ.

فجَّر أحمد فكري الثورة المكتومة بداخلنا؛ فتشجعنا جميعًا وأطلقنا العنان لألسنتنا السليطة وأخذنا نسب ونلعن فيمن وضع أسئلة الامتحان الذي أجمعنا كلنا على أنه غاية في الصعوبة.

- يلا نروح نلعب كورة.

قرر أحمد فكري أن يلعب دور القائد الملهم للمرة الثانية في أقل من عشرين دقيقة؛ فاقترح علينا أن نتناسى الامتحان ونذهب للعب كرة القدم في الساحة التي تقع بالقرب من منزله، فوافقنا دون تفكير، ربما لكي نكافئه على كسر حالة الصمت بعد الامتحان.

في طريقنا إلى ملعب الكرة لم أستطع أن أنزع من رأسي الامتحان بشكلٍ كامل، إلا إنني عندما بدأت اللعب مع زملائي نسيت الأمر تمامًا، وحتى عندما تذكرته بعد انتهائنا من اللعب تعاملت معه بلا مبالاة وقلت لنفسي:

- وإيه يعني؟ الامتحان كان صعب علينا كلنا مش أنا لوحدي.

فكـرة وقـوع البـلاء عـلى الجميـع أراحـت ضمـيري كثـيرًا وجعلتنـي أهـدأ وأشـعر وكأن شـيئًا لم يحـدث، إلا أن أبي كان لـه رأيًـا مختلفًـا، فـما إن وصلـت إلى المنـزل وأخبرتـه بمـا حـدث في الامتحـان، سـألني:

- وإيه اللي أَخَرَّك لحد دلوقت؟

فتحت على نفسي أبواب الجحيم دون أن أدري عندما قلت له:

- أبدًا.. رُحنا لعبنا كورة شوية بعد الامتحان.

كان مـن الطبيعـي أن يوبخنـي أبي ويتهمنـي بالتقصـير في المذاكـرة عندمـا قلـت لـه إن الامتحـان صعـب، وعندمـا علـم أنني ذهبـت للعب الكـرة بعـد الامتحـان وجدهـا فرصـة ذهبيـة لـكي يزيـد مـن جرعـة التوبيـخ التـي اسـتمرت لأكـثر مـن عشريـن دقيقـة جعلتنـي أنـدم عـلى أننـي أخبرتـه الحقيقـة، وأنـدم أكـثر عـلى اسـتهتاري وتعامـلي مع فشـلي بالامتحـان بـلا مبـالاة؛ فانتهت وصلـة توبيخه لي، وبـدأت وصلة توبيخي لنفـسي واسـتمرت حتـى السـاعات الأولى مـن صبـاح اليـوم التـالي.

طـوال الليـل وأنـا أتقلـب في سريـري ولا أسـتطيع أن أنـام سـاعة واحـدة، وأنـا أشـعر بتأنيـب الضمـير وألـوم نفـسي عـلى مـا فعلتـه، وكان مـن الطبيعـي أن أنتهـي مـن باقـي الامتحانـات في الأيـام التاليـة، وأعـود إلى المنـزل فـورًا ولا أذهـب للعـب الكـرة حتـى لـو كان الامتحان سـهلًا، وحتـى لـو ألـح عـليَّ زمـلائي كي أشـاركهم اللعـب.

مـرت عـليَّ السـنوات، بنجاحاتهـا وإخفاقاتهـا، وأنـا أحـذر نفـسي دائمًـا مـن التعامـل مـع أي أمـر بـلا مبـالاة مثلـما فعلـت مـع امتحـان العلـوم، حتـى انتهيـت مـن الدراسـة الجامعيـة بكليـة التجـارة التـي

التحقـت بهـا بعـد فشـلي في الحصـول عـلى مجمـوع كبـير يؤهلنـي للالتحـاق بكليـة الهندسـة، وبـدأت رحلـة البحـث عـن وظيفـة، وهـي الرحلـة التـي جعلـت منـي خبـيرًا في المقابـلات الشـخصية التـي فشـلت كثـيرًا في اجتيازهـا.

- أهـم حاجـة عشـان تعـدي الإنترفيـو إنـك تبقـى واثـق في نفسـك ومـش خايـف.. لـو الـلي بيعمـل معـاك الإنترفيـو شـافك مُرتبـك هيسـقَّطك.

سـمعت هـذا النصيحـة كثـيرًا مـن أشـخاص أعرفهـم وآخريـن لا أعرفهـم عندمـا حكيـت لهـم عـن فشـلي المتكـرر في اجتيـاز المقابـلات الشـخصية والحصـول عـلى وظيفـة؛ فقـررت أن أتعامـل مـع المقابـلات الشـخصية بـلا مبـالاة.. ولكننـي فشـلت.

تمت

ربطة عنق

تَعَرَّفت عليه بقصر ثقافة السينما عندما كنا نَدرِس مادة السيناريو ضمن نشاط الدراسات الحرة بالقصر، كان حلمنا واحدًا، وبعد أن أنهينا فترة الدراسة أخذنا نبحث عن فرصة لدى المخرجين وشركات الإنتاج بلا جدوى؛ فبدأ اليأس يتملك منا ولكننا كنا نقاومه.

اختفى لنحو شهر، وعندما اتصل بي عرفت منه أنه التحق للعمل ببنك أجنبي، وقابلته مساء ذلك اليوم في وسط البلد، وخلال تسكعنا كنا نناقش حلمنا المشترك، وفجأة توقف وقال لي:

- استنى.

توقفت عن السير وأنا أنظر إليه نظرة تساؤل تجاهلها واقترب من بائع ربطات عنق (كرافتات) يقف على الرصيف، وأخذ يتفحص بضاعته باهتمام قبل أن يمسك ربطة عنق ويشير إليَّ بها ويسألني:

- إيه رأيك في دي؟

نظرت له بحزن ولم أرُد وقد أدركت أنني سأكمل طريق الفن وحدي.. وكان آخر لقاء بيننا.

تمت

كلب المدير

منـذ أول يـوم لي في العمـل كمحـرر بهـذا الموقـع الإلكـتروني وأنـا أشـعر -شـعور يرقـى إلى مرتبـة اليقـين- أنـه لم يكـن يرحـب بوجـودي ضمـن مرؤوسـيه، وأنـه اضطـر فقـط إلى قبـولي للعمـل تحـت إدارتـه بنـاءً‌ا عـلى أوامـر صـدرت لـه مـن الإدارة المختصـة بالشركة (الإتـش آر).

ومـع مـرور الوقـت، ومـع طريقـة معاملتـه لي، وتمييـزه لزمـلائي عنـي وإثقـالي بأعبـاءٍ وظيفيـة أكـثر منهـم، كان ذلـك الشـعور الكريـه يسـيطر عـليَّ أكـثر فأكـثر، حتـى جـاء اليـوم الـذي هـددني فيـه بشـكلٍ غـير مبـاشر بـأن الطريـق يُمَهَّـد للاسـتغناء عـن خدمـاتي في الشركـة.

لا يمكـن أن أنـسى ذلـك اليـوم الـذي أرسـل لي فيـه أحـد كلابـه مـن الزمـلاء، والـذي كنـت أعتـبره صديقًـا غـير مخلـص، ليخـبرني عـن نيـة أحـد مديـري التحريـر بالموقـع إقالتـي مـن العمـل لأسـباب قـال إنـه لا يعلمهـا.

- والله ما أعرف.

- ازاي يعني؟ هيمشوني كده من غير مناسبة؟!

- أكيد في سبب، بس أنا معرفهوش.

ذهبـت إلى المنـزل في ذلـك اليـوم وأنـا أحمـل عـلى عاتقـي همـوم الفقـر والحرمـان والخـوف مـن المسـتقبل، بالإضافـة إلى قـدرٍ هائـل مـن التفكـير لمحاولـة التكهـن بشـخص مديـر التحريـر الـذي قـرر الاسـتغناء عنـي، والأسـباب التـي جعلتـه يفكـر في إقالتـي دون سـبب واضـح أو سـابق إنـذار.

تجـاوز العمـر الثلاثـين، والمؤهـلات العلميـة والوظيفيـة لا تؤهلنـي للحصـول عـلى عمـلٍ آخـر بسـهولة.

إحساس الخوف لم يتركني ساعة واحدة بعد هذا اليوم الكئيب، كنت أذهب إلى العمل، ومن حينٍ لآخر أتفحص الوجوه المحيطة في محاولةٍ يائسة لمعرفة ذلك الشرير الذي يفكر جديًّا في إلحاق الأذى بي، وبسؤال بعضٍ ممن أوهمت نفسي أنهم أصدقاء، لم أصل لشيء، بل إن بعضهم حاول طمأنتي بأن الأمور تسير على خير ما يرام، فقال لي أحدهم:

- وهيمشوك ليه يعني؟ أنا شايفك شغال كويس.

- مش عارف والله، ده الكلام اللي وصل لي.

- طالما ماحدش قال لك حاجة رسمي يبقى خلاص، ما تقلقش نفسك ع الفاضي.

حاولت أن أُطمئن نفسي، لكن مديري الذي هددني عن طريق الكلب كان يفعل كل ما يمكن أن يضايقني ويُعجل برحيلي، بداية من التشكيك في مستوى أدائي في العمل، ووصولاً إلى إثقالي بكمية لا تحتمل من المهام الوظيفية السخيفة، مع تذكيري بشكلٍ غير مباشر أنني على حافة الهاوية. ولم أكن أستطيع فعل شيء سوى التحمل والاستمرار وانتظار المصيبة حتى تحدث.

ومع مرور وقت أكثر دون حدوث شيء، وبالتمعن أكثر وأكثر في كل ما حدث، أدركت أن التهديد غير المباشر وما تبعه من مضايقات ليس إلا محاولة «تطفيش» من مديري المباشر لصالح أحد أصدقاء جلسات الحشيش، ولم تأت تلك المحاولة في وقتٍ عشوائي، فقد كان عقدي مع الشركة قد أوشك على الانتهاء على أن يُجدد تلقائيًا.

مـرت عـليَّ بضعـة أشـهر وأنـا خائـف مـن المديـر، ومـن مدير المديـر، ومـن جميـع مديـري التحريـر في الموقـع، أتعامـل معهـم بتوجـس وحـذر حتـى أصبـح الخـوف يسـيطر عليهـم جميعًـا _وأنـا معهـم_ بعدمـا علمنـا أن الشركـة المالكـة للموقـع قـد بِيعـت لأخـرى وأننـا بصـدد حـدوث بعـض التغيـيرات، والتـي حدثـت بالفعـل وأطاحـت بهـم جميعًـا مـن مناصبهـم.

تـم تجريـد جميـع مديـري التحريـر مـن سـلطاتهم التـي أخافتنـي فـترة غـير قصـيرة، وتسـاوت الـرؤوس. ومـع زيـادة الضغـوط عليهـم اضطـروا إلى تـرك العمـل، ذهبـوا جميعًـا ومعهـم مديـري المبـاشر.. وبقيـت أنـا.

تمت

مدرسة حكومية

«مدرسة حكومية أم خاصة أم تجريبية أم لغات أم إنترناشيونال»؟!

سؤال تقليدي يرى أولياء الأمور في بلدنا _التي نعاني الأمرين منذ عرفناها_ أنهم مطالبون بالإجابة عنه. وعن نفسي وجدت أن السؤال الأهم هو: هل يوجد تعليم جيد في مصر؟

أجبت السؤال بضميرٍ مستريح وقلت لنفسي: لا.. لا يوجد تعليم جيد في مصر، ولنعتمد على أنفسنا إذن ونجرب في أبنائنا ذلك النظام الجديد الآخذ في الانتشار والمسمى homeschooling أو التعليم من المنزل، وعلى أي حال فالتجارب ليست جديدة علينا، فالحكومات المختلفة أجرت وما زالت تُجري علينا التجارب، ولا نملك أمام تجاربها إلا الخضوع كالفئران الذليلة.

- أنا مش هوديه مدرسة أصلًا.

هذا ما قلته لزوجتي التي تفكر مثل معظم الأمهات في مصر، والتي أرادت لابننا الأكبر أن يلتحق بمدرسة باهظة المصروفات لكي تكون مطمئنة، وربما لكي تتباهى أمام الأخريات أيضًا.

ردَّت عليَّ بدهشة:

- يعني إيه؟!

- مش لازم مدرسة، ما إحنا بنجيب له مُدرِسة في البيت أهو.

- هو ينفع مايروحش مدرسة؟!

- هنقدم له في مدرسة حكومة مصاريفها قليلة، ويبقى يروح الامتحانات بس.

- ازاي يعني؟! ويقعد كده ما يختلطش بحد ولا يشوف الناس؟!

- ما هو بيروح النادي وبيختلط بالعيال، المهم انه يتعلم كويس مش انه يروح مدرسة.

لم تقتنع، ولكنني كنت قد اتخذت قراري، وعندما حان موعد التقديم ذهبت إلى أقرب مدرسة حكومية.

بمجرد أن دخلت من باب المدرسة المُتَسِخ، ورأيت حالتها التي يرثى لها، فكرت في كلام زوجتي عن ضرورة إلحاق ابننا بمدرسة خاصة، ولكنني قاومت تلك الفكرة وقلت لنفسي:

- هو كده كده مش هييجي، مافيش داعي لدفع مصاريف كتيرة في المدارس الخاصة، الفلوس دي أنا هوفرها وأصرفها عليه في حاجة تفيده.

سألت رجل أربعيني يرتدي جلبابًا _هو أول شخص قابلني في المدرسة_ عن طريقة التقديم للصف الأول الابتدائي؛ فقال لي:

- حضرتك بتجيب شهادة ميلاد العيل وصورة بطاقة الأب وصورة بطاقة الأم وشهادة صحية و......

قاطعته بارتباك:

- طب معلش ممكن تكتب لي كل الحاجات دي في ورقة؟

أخرج من جيب بنطاله ورقة «مكرمشة» وقلمًا وكتب لي قائمة قصيرة بالأوراق المطلوبة، تناولتها منه ونظرت بها وأنا أقول له:

- شكرًا جدًا، ألف شكر، أجيبهم إمتى بقى؟

- يوم الأحد والأربعاء من الساعة 9 كده لحد 12.

- طب بالنسبة للشهادة الصحية دي أجيبها منين؟

- ممكـن تجيبهـا مـن الصحـة، بـس مشـوار وهتاخـد وقـت، أنـا ببيعهـا بخمسـين جنيـه لـو عايـز.

شعرت أنني أتعرض لعملية استغلال، فسألته بتردد:

- خمسين؟ هي تمنها كام أصلًا؟

رد عليَّ باستياء وهو يهم بالانصراف:

- معرفش، روح اسأل في الصحة، وأنت وحظك بقى.

استوقفته معلنًا انتصاره عليَّ وقلت له مستسلمًا:

- استنى بس، هي معاك دلوقت؟

- أيوه.

- طب مكتوب في الورقة شهادة صحية وطوابع!

- موجودة بالطوابع، عايزها ولا هتروح الصحة؟

اشـتريت الشـهادة الصحيـة والطوابـع منـه، وانصرفـت وأنـا أضـع الورقـة التـي كتبهـا بيـده في حافظـة نقـودي، وأتمـتم باسـتنكار:

- أول القصيـدة كُفـر، اتقلّبـت في خمسـين جنيـه مـن أولهـا، الفـراش قلبنـي في خمسـين جنيـه، أومـال مديـر المدرسـة هيعمـل ايـه؟!

لم أنتظـر كثـيرًا لأعـرف إجابـة سـؤالي؛ فقـد جـاء يـوم الأربعـاء بعـد يومـين لأذهـب إلى المدرسـة في السـاعة العـاشرة ومعـي ملـف يحـوي الأوراق المطلوبـة.

دخلـت مـن بـاب المدرسـة بخطـواتٍ مـترددة وأنـا أبـذل مجهـودًا لأطـرد مـن رأسي فكـرة المدرسـة الخاصـة، وسـألت سـيدة، ترتـدي

ملابس بسيطة وتصطحب ولدًا في عمر ابني، عن مكان التقديم فأشارت في نفس اتجاه سيرها، وقالت:

- في المكتب اللي ع الشمال ده.

تبعتها إلى المكتب، الذي عرفت أنه مكتب مدير المدرسة، وما إن وصلنا حتى وجدت بعض الازدحام أمام مكتب المدير الخمسيني الأصلع الذي يتمتع بقدرٍ من البدانة.

انتظرت بعض الوقت أمام المكتب، وعندما جاء دور السيدة التي عرفت أنها جاءت لتسليم أوراق ابنها مثلما جئت، اقتربت أكثر من الباب وأنا أحاول إنصات السمع لحوارها مع المدير.

أخذ المدير ملف الأوراق منها وتفحصه ليتأكد من اكتمالها، وعندما انتهى نظر إلى السيدة وإلى ابنها، وقال:

- تمام، هتخرجي برة عند أي مكتبة وتجيبي 10 مقشات أو رزمتين ورق أبيض وترجعي لي.

نَظَرَت له السيدة نظرات هي مزيج من الدهشة والتساؤل والضيق، فقال لها بغضب:

- إيه مالك؟ يلا كله بيجيب.

فَهِمت أن المدير يأخذ هذه الرشاوى الزهيدة للمدرسة كنوع من التبرعات الإجبارية لقبول التلاميذ بها، وانتابتني حالة من الغضب وقررت على الفور أن أعدل عن قرار إلحاق ابني بهذه المدرسة، ولكن بعد أن أتشاجر مع المدير وأهدده بفضح أمره والإبلاغ عنه.

وقلت لنفسي:

- ده مدير مدرسة ده؟! لما مدير المدرسة يسرق الناس عيني عينك كده، أومال المدرسين بيعملوا إيه؟ وهيتعاملوا مع العيال ازاي؟ ولو مدرس عمل حاجة غلط أولياء الأمور هيشتكوه لمين؟!

ورغم أنني كنت قد اتخذت قراري قبل المجيء لهذه المدرسة بأن ابني لن يأتي إلَّا لحضور الامتحانات فقط، إلا إنني شعرت بالاستياء والخوف، لدرجة أنني تخيلت نفسي في حلم من أحلام يقظتي وأنا أُخرج من تحت ملابسي سكينًا كبيرًا أشق به صدر هذا المدير مثلما فعل (فيتو كورليوني) مع (دون تشيشيو) في الجزء الثاني من فيلم Godfather.

همَّت السيدة بالخروج من مكتب المدير الذي استوقفها وهو يملأ أوراقًا أمامه:

- هو أبوه بيشتغل إيه؟

التفتت له السيدة وقالت:

- أبوه كان عامل على باب الله، الله يرحمه.

بدا على وجه المدير الخجل والتعاطف ونظر إليها بإشفاق وقال:

- طب اتفضلي أقعدي.

- طب هرُوح أجيب المقشات الأول.

- لألأ خلاص مش لازم، اتفضلي.

وغمغم بخجل:

- مش تقولي يا ستي من الأول؟

أنهى المدير إجراءات قبول ابن السيدة البسيطة وقال لها:

- كده تمام يا ست الكل، المفروض المصاريف هتتدفع يوم 15 عشان تستلمي له الكتب، ماتبقيش تدفعي، ابقي عدي عليا هنا وأنا هخلص لك كل حاجة.

خرجت السيدة وهي سعيدة، وجاء دوري لأقف أمام المدير الذي تفحص أوراقي، وقال لي بتردد:

- هنحتاج من حضرتك رزمتين ورق أبيض.. للمدرسة طبعًا.

قلت له مستسلمًا راضيًا:

- تمام، 10 دقايق وأرجع لحضرتك.

خرجت من المدرسة، واشتريت رزمتين من الورق وعشر مكانس يدوية (مقشات)، وعُدت للمدير، ووضعت المكانس في أحد جوانب الحجرة والورق أمامه على المكتب؛ فنظر للمكانس بدهشة وقال:

- إيه ده؟

- لأ عادي، حاجة بسيطة كده، وتحت أمرك في أي حاجة.

ابتسم بامتنان، وقال لي بشيء من الخجل:

- كله للأولاد والله.

- ولا يهمك.

أنهيت الإجراءات، وغادرت المدرسة راضيًا وأنا أقول لنفسي إن الأمر ليس سيئًا للدرجة التي تصورتها.

تمت

الثلاجة

كانـت المـرة الأولى، ولم تكـن الأخـيرة، كنـت في الصـف الثالـث الإعـدادي تلميـذ يُقـال عنـه إنـه متفـوق، اكتشـفت بعـد ذلـك أنـه تفـوق وهمـي، أو وهـم التفـوق.

لم أكـن أعـي شـيئًا في الحيـاة، لم أكـن أقـرأ غـير كتـب المدرسـة، وأقرأهـا فقـط لأنـني مُجـبر عـلى قراءتهـا، فهـذا هـو روتـين الحيـاة في مـصر، تنجبـك أمـك وفي سـن معينـة تلقـي بـك أمـام قطـار التعليـم ليدهسـك، مـن الحضانـة إلى الجامعـة مـرورًا بالمرحلـة الإعداديـة والثانويـة، إنهـا عربـات قطـار التعليـم التـي لا ترحـم.

بدايـة الخـروج عـن الروتـين غـير المفهـوم كانـت حصـة العلـوم، وبالتحديـد درس «الثلاجـة»، ذلـك الـدرس المُمـل الـذي نـدرس فيـه مكونـات الثلاجـة وطريقـة عملهـا.

وكان التعليـق مـن زميـلي الفاشـل «محمـد عـلي» لأسـتاذ عـوض، مـدرس المـادة:

- ماينفعش نحط الأكل وهو سخن في التلاجة عشان هتبوظ.

نظر له أستاذ عوض بدهشة وقال:

- ليه؟

- أمي اللي دايمًا تقول لي كده.

- لأ غلط، حطه عادى ومش هيجرالها حاجة.

وكان التعليق الطريف المستفز من زميلنا رامي أبوالعلا:

- مين دى؟ أمه؟

- هاهاها.

لم أنشـغل بـإذا مـا كانـت (الـلي مـش هيجرالهـا حاجـة) هـي الثلاجـة أم أُم «محمـد عـلي»، لقـد انشـغلت بموضـوعٍ آخـر، إنهـا أمـي، نعـم أمـي أنـا، وليسـت أم «محمـد عـلي»، ولتذهـب أم «محمـد عـلي» إلى الجحيـم.

لقد كانت أمي تقول لي نفس الشيء:

- ماتحطش الأكل وهو سخن في التلاجة عشان بتبوظ.

والمدرس يقول:

- لأ غلط، حطه عادى ومش هيجرالها حاجة!

وكانـت العـودة إلى المنـزل، العـودة المصحوبـة بنظـراتٍ هـي مزيـج مـن الدهشـة والتسـاؤل؛ فمنـذ عـودتي إلى المنـزل وأنـا أنظـر لأمـي، وأريـد أن أسـألها لأعـرف، ولكننـي فَضَّلـت الصمـت والانتظـار.. الانتظار حتـى تنتهـي مـن إعـداد طعـام الغـداء.. الطعـام السـاخن.. يجـب أن يكـون سـاخنًا، ويجـب أن أضعـه في الثلاجـة وهـو سـاخن، وأنتظـر رد فعـل أمـي.. وكان رد الفعـل كالمعتـاد، فقـد صاحـت أمـي بي:

- ماتحطش الأكل وهو سخن في التلاجة عشان هتبوظ.

وكانـت المواجهـة بـين رأي أمـي، التـي تخـاف عـلى ثلاجتهـا، ورأي أسـتاذ عـوض، الـذي يُـدَرّس مـادة العلـوم، ولم تغـير أمـي رأيهـا، ولم أسـتذكر أيًـا مـن دروسي في هـذا اليـوم، ولم أسـتطع النـوم، كانـت الحيرة تلتهـم رأسي؛ فطاردتنـي صـورة الثلاجـة الملتهبـة حتـى الصبـاح، حتـى الذهـاب إلى المدرسـة، حتـى دخـول الفصـل، وحتـى حصـة العلـوم.

كان عنـدي أمـل أن يُغـير أسـتاذ عـوض رأيـه ويقـول إنـه كان يمـزح بالأمـس، ولكنـه أصَّر عـلى رأيـه مؤكـدًا أن الثلاجـة (مـش هيجرالهـا

حاجـة).. وانتهـت الحصـة، وتلتهـا حصـة التاريـخ، كانـت حصـة مراجعـة.. الحملـة الفرنسـية عـلى مـصر.. ثـورة 1919 وقائدهـا، سـعد باشـا زغلـول، كنـت أسـتمع إلى الأحـداث باهتـمامٍ أقـل مـما سـبق، حتـى توقفـت فجـأة عنـد الاحتـلال البريطـاني لمـصر، والـذي اسـتمر مـا يقـرب مـن سـبعين سـنة، الإنجليـز ظلـوا في مـصر مـا يقـارب السـبعين سـنة، وكانـوا بالطبـع يتحدثـون بلغتهـم، ووجـدت نفـسي أمـام سـؤال:

- هــل هــذا ممكــن؟ يحدثوننــا طــوال هــذه الفــترة بلغتهــم الإنجليزيــة ولم نتعلمهــا؟! وبإتقــان؟!

إن محمـد عـلي _سـبب المأسـاة_ لا يعـرف حتـى الآن الفـرق بـين p وb، وليـس هـو وحـده، إن معظـم طـلاب الفصـل كذلـك، أحمـد محمد السـعيد الـذي لا يفعـل شـيئًا في حياتـه سـوى المذاكـرة، رسـب في مـادة اللغـة الإنجليزيـة، هـل هـذا معقـول؟!

عُـدت إلى المنـزل والحـيرة تـأكل رأسي مـن ناحيـة والشـك مـن ناحيةٍ أخـرى، ولم أسـتطع المذاكـرة؛ فقـد كانـت الثلاجـة بالقـرب مـن مكتبي.

لم أسـتطع أن أبعـد نظـري عـن الثلاجـة، ظلـت تطـاردني، اقتربـت منهـا بحـذر وأنـا أدقـق النظـر إليهـا، كانـت نظـراتي مختلفـة عـن سـابقتها _نظـرات مـن يبحـث عـن سرٍ خطـير أو مـن يحـاول اكتشـاف حقيقـة تائهـة_ ولم أعـثر عـلى شيء!

فتحـت بـاب الثلاجـة عـلى أمـل أن أجـد بداخلهـا مـا يطفـئ نـاري، ظللـت أدقـق النظـر بهـا.. مكرونـة، طماطـم، زجاجـات ميـاه، محـشي، لا لا، ليـس هـذا مـا أبحـث عنـه، وفجـأة صرخـت بي أمـي:

- أوعى تحط الأكل سخن في التلاجة.

أغلقـت بـاب الثلاجـة مذعـورًا، وذهبـت إلى سريـري، ولم أسـتطع النـوم.

في اليـوم التـالي كنـت أسـير بخطـواتٍ مـترددة في طريقـي إلى المدرسـة؛ فوصلـت متأخـرًا، دخلـت مـن بـاب المدرسـة، اتجهـت إلى الفصـل، وعندمـا اقتربـت سـمعت صـوت أسـتاذ عـوض مـن داخـل الفصـل وهـو يقـول لزمـلائي:

- وممكـن عـادى تحـط الأكل وهـو سـخن في التلاجـة، مـش هيجرالهـا حاجـة.

توقفـت خـارج الفصـل للحظـات، وتوجهـت إلى بـاب المدرسـة الـذي وجدتـه مـازال مفتوحًـا.

خرجـت مـن المدرسـة.. لم أذهـب إلى الثلاجـة، أقصـد إلى المنـزل،.. ولم أكـن أعـرف إلى أيـن أنـا ذاهـب.

تمت

أمنية جديدة

كان مـن الطبيعـي أن ألتحـق بـأي عمـل بعـد تخرجـي في كليـة التجـارة وبينـما كنـت أنتظـر تحديـد موقفـي مـن أداء الخدمـة العسـكرية، لـذا شـعرت بسـعادة بالغـة عندمـا تـم قبـولي في مهنـة عامـل توصيـل طلبـات بتلـك الصيدليـة الواقعـة بمنطقـة وسـط البلـد.

كـدت أفقـد الأمـل تمامًـا بعدمـا بحثـت لبضعـة أشـهر عـن عمـلٍ بالطريقـة التقليديـة بجريـدة الأهـرام (عـدد يـوم الجمعـة) وجريـدة الوسـيط المجانيـة التـي كنـت أشـتريها بثلاثـة جنيهـات، حتـى قـرأت ذلـك الإعـلان الـذي يطلـب عامـلي توصيـل بصيدليـة؛ فاتصلـت عـلى رقـم الهاتـف المكتـوب في الإعـلان:

- ألو.

ردت عليَّ فتاة بصوتٍ أوتوماتيكي:

- صيدلية بلبل تحت أمرك؟

- لـو سـمحتِ بتكلـم بخصـوص إعـلان الشـغل الـلي نـازل في الوسـيط.

- المؤهل إيه وعندك كام سنة وساكن فين؟

- بكالوريوس تجارة، 24 سنة، ساكن في الهرم.

- الشغل في شـارع نوبـار عنـد محطـة مـترو محمـد نجيـب مـن 9 لــ 5 والمرتـب 400 جنيـه، تمـام؟

- آه تمام، ممكن آجي أعمل الإنترفيو امتى؟

- لأ مافيـش إنترفيـو، لـو مناسـب ليـك تيجـي بكـره السـاعة 9 الصبـح معـاك صـورة البطاقـة الشـخصية وتسـتلم الشـغل عـلى طـول.

تغلبت على دهشتي وقلت لها بحماس:

- ماشي تمام، هاجي بكره قبل الساعة 9 إن شاء الله.

في الحقيقة كانت تَكَوَنَت لديَّ عُقدة من المقابلات الشخصية التي عرفت، بعد أن خضعت للكثير منها وفشلت، أن هناك دورات تدريبية (كورسات) مخصصة لكيفية اجتيازها، وهو الأمر الذي جعل العُقدة تزداد تعقيدًا، فبمجرد أن قالت لي الفتاة إن العمل بدون مقابلة شخصية شعرت بسعادةٍ بالغة اختلطت بالدهشة والقلق، ولكن لم يكن أمامي سوى أن أذهب في الموعد.

استيقظت في اليوم التالي مبكرًا وأنا أشعر بمزيدٍ من القلق، وفكرت في عدم الذهاب إلى الصيدلية، ولكنني تخوفت من إضاعة الفرصة التي يصعب عليَّ إيجاد بدلًا منها؛ فارتديت ملابسي وذهبت.

وصلت إلى شارع نوبار في الساعة الثامنة وأربعين دقيقة وأنا أشعر بالقلق المعتاد من الخطوات الجديدة التي أخطوها، توقفت أمام الصيدلية لنحو دقيقتين، وأخذت نفسًا عميقًا ودخلت بخطواتٍ مرتبكة لأقابل سمر، مديرة الصيدلية البالغة من العمر ثلاثين عام تقريبًا، وألقيت عليها التحية:

- السلام عليكم.

ردت عليَّ بنفس طريقتها الأوتوماتيكية:

- وعليكم السلام أؤمر؟

- أنا جاي عشان موضوع الشغل، اتصلت امبارح.

فتَحَت كشكولًا صغيرًا أمامها وسألتني:

- اسمك إيه؟

- محمد حسين عبدالعزيز.

- بكالوريوس تجارة، صح؟

- آه

- الشغل من 9 لـ5 كل يوم ماعدا السبت والمرتب 400 جنيه.

- آه ما أنا عارف.

وتبادلنا نظرات تساؤل صامتة قبل أن أسألها بتوتر:

- طب هو الشغل عبارة عن إيه بالظبط؟

- هتوَصَّل أدوية بس، وعصام أول ما ييجي هيقعد معاك ويشرح لك الدنيا فيها إيه.

لم أجد ما أقوله، فتابَعَت وهي تشير بيدها إلى باب الصيدلية وكأنها تطردني منها:

- بص، هتستناه برة، أول ما تخرج من الصيدلية هتلاقي مدخل للعمارة اللي جنبنا كده على شمالك، وفي زي مصطبة كده، أقعد استناه هو زمانه على وصول.

خرجت من الصيدلية وانحرفت يسارًا ووجدت بالوعة مجاري مرتفعة في ممر صغير بين عمارتين، وفهمت أنها «المصطبة» المقصودة فجلست عليها بحذر وأنا أشعر بالتشاؤم.

جاء إليَّ في التاسعة وثلاث دقائق، شاب ثلاثيني، بدين، أسمر البشرة، تعلو جبهته تلك العلامة المسماة بـ(زبيبة الصلاة)، وألقى عليَّ التحية:

- السلام عليكم.

نهضت من مكاني ورددت تحيته:

- وعليكم السلام.

- سمر فهمتك الشغل؟

نظرت له بدهشة ثم أدركت أنه عصام الذي حدثتني عنه، فأجبته بارتباك:

- هي قالت لي هتوصَّل أدوية بس.

- آه، إحنا بنوَصَّل الأدوية، بس مش للمنازل، شغل المنازل ده بيبقى قليل قوي، إنما شغلنا الأساسي شركات.

نظرت له وأنا لا أفهم، فتابع وهو يجلس فوق البالوعة:

- بُص يا سيدي، إحنا شغلنا كله شركات، الصيدلية متعاقدة مع شركات بنظام التأمين الصحي، والشركات دي كلها تقريبًا هنا في وسط البلد، أول ما بيحتاجوا حاجة بيتصلوا بسمر وواحد مننا بيرُوح يودي الأدوية ويمَضِيهم على استلامها.

- تمام، أنا وحضرتك بس اللي شغالين؟

- لأ في ناس تانية شغالة معانا، في عم محسن وواحد اسمه شريف، وواحد تاني اسمه هاني كان أول يوم له امبارح، زمانهم جايين.

جلست بجانبه على البالوعة وأنا أفكر في أن توطيد علاقتي بذلك الـ (هاني) قد يشجعني على مواجهة عثرات أول الطريق والتغلب على خوفي من الفشل من تلك الوظيفة الغريبة عليَّ.

خلال عشر دقائق كان عم محسن وشريف قد وصلا وتعرفت عليهما، وانتظرت هاني ولكنه لم يأت؛ فشعرت بالتشاؤم أكثر، خصوصًا عندما اصطحبني شريف معه وهو يوصل الأدوية للشركات لكي يُعَرّفني عناوينها وكيفية التعامل معها.

كان شريف _الحاصل على دبلوم مدرسة الصنايع_ يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، ويتسم بالكسل والبلادة، وربما بالغباء أيضًا، ولكنني كنت مضطرًا إلى الإنصات لكل ما يقوله وتنفيذ ما يطلبه مني. ومر اليوم طويلًا ثقيلًا وأنا أرافق شريف وأفكر في هاني الذي لم يأت.

ذهبت إلى المنزل بعد انتهاء العمل، وفكرت في عدم العودة مرة أخرى وأنا أسترجع أحداث اليوم في رأسي، بدايةً من الجلوس على (البالوعة) ومرورًا بتغيب هاني وحتى مرافقة شريف الذي تأكدت من غبائه.

استيقظت في اليوم التالي وذهبت _مستسلمًا_ إلى العمل في موعدي وأنا أفكر في الأربعمائة جنيه التي سأحصل عليها بعد شهر، وعندما وصلت وجدت عصام يجلس على البالوعة فسلمت عليه وأخذت أتجاذب معه أطراف الحديث حتى جاء عم محسن وبعده شريف الذي سأل عن هاني:

- هو اسمه إيه هاني ده ماجاش برضه؟

رد عليه عصام:

- لأ لسه، مش عارف هييجي تاني ولا لأ أصلًا، شكله كده...

وقطع حديثه فجأة عندما رأى هاني يُقبل علينا وهو يتثاءب.

تحدثـت مـع هـاني خـلال اليـوم أكـثر مـن مـرة، وعرفـت منـه أنـه حاصـل عـلى دبلـوم مدرسـة التجـارة، ومتـزوج ولديـه ابـن، رغـم أنـه لم يتجـاوز الثالثـة والعشريـن مـن عمـره، ويعيـش مـع والديـه في نفـس المنـزل.

كان هــاني شـخصية مُحَــيِرة بالنسـبة لي، فهـو يعتمـد عـلى تلـك الوظيفـة ذات الأربعمائـة جنيـه لجلـب مصاريفـه وهـو المتـزوج الـذي يَعُـول، في حـين أتعامـل أنـا معهـا كوظيفـةٍ مؤقتـة تناسـب شـخص مثـلي ينتظـر معرفـة موقفـه مـن الخدمـة العسـكرية.

وعندما استفسرت منه عن الأمر قال لي بهدوء:

- ما أنا عايش مع والدي ووالدتي قلت لك.

شـعرت ببعـض الارتيـاح عندمـا عرفـت مـن هـاني أنـه كان يفكـر بعـد أول يـوم لـه في العمـل ألا يـأتي مـرة أخـرى مثلـما فكـرت، ولكنـه قـرر الاسـتمرار لعـدم وجـود بديـل، فشـجعته عـلى ذلـك قائـلًا:

- أنـا كـمان ماكنتـش مسـتريح بصراحـة، بـس قلـت أجـي وخـلاص، والشـغلانة سـهلة أصـلًا ومـش مُتعبـة، وأدينـا هنشـجع بعـض والدنيـا هتمـشي.

- إن شاء الله.

انتهـى اليـوم أفضـل مـن سـابقه، وعندمـا ذهبـت إلى العمـل في اليـوم التـالي انتظـرت هـاني حتـى يـأتي، ولكنـه تغيـب، فشـعرت بالقلـق ولكننـي مارسـت عمـلي وحاولـت أن أُطمـئن نفسي، إلا إنـه لم يـأت في اليـوم التـالي أيضًـا، وعندمـا جـاء في اليـوم الثالـث أبلغتـه سـمر بأنـه تـم الاسـتغناء عنـه بسـبب تغيبـه دون إذن.

فوجئ هاني وبدت عليه صدمة شديدة، وانتظر الدكتور ياسر، صاحب الصيدلية ذا التسعة وثلاثين عامًا، حتى جاء، فقال له هاني بحزن:

- يا دكتور هو أنا عملت حاجة؟!

رفع دكتور ياسر حاجبه الأيسر مثل الفنان فريد شوقي وهو يؤدي أدوار الشر في أفلامه الأولى، وقال لهاني:

- انت شغال معانا من كام يوم؟

- خمسة تقريبًا.

- وجيت كام يوم من الخمسة وغيبت كام يوم؟

- أصل كان عندي ظروف و...

قاطعه صاحب الصيدلية وهو يرفع نفس الحاجب:

- معلش حتى لو عندك ظروف، إحنا بنوَصَّل أدوية لناس عيانة، ما ينفعش نتأخر عليهم، دي أرواح ناس، إحنا مش شغالين هنا بنبيع كيلوتات، لو بنبيع كيلوتات نتأخر ونغيب ونبَوَّظ الشغل عادي، إنما دي صحة ناس، مسئولية كبيرة.

فوجئ هاني _كما فوجئت_ بالطريقة التي يتحدث بها الطبيب الصيدلي صاحب الصيدلية وبالألفاظ التي يستخدمها؛ فالتزم الصمت وتابعت أنا بترقب وقلق.

أعاد الدكتور ياسر نفس كلامه على مسامع هاني، ولكن بطريقةٍ مختلفة لم ينس أن يكرر فيها لفظ (كيلوتات)، حتى اعتذر لهاني في النهاية عن استمراره في العمل.

أصابنـي الـكلام بالغـم والإحبـاط وشـعرت أننـي أحمل همـوم العالم بأكمله فـوق رأسي؛ فقـد كنـت أرى نفـسي مجـرد (موَصَـلَّاتي) بأربعمائة جنيـه، وليـس مسـئولًا عـن حيـاة النـاس وصحتهـم.

انـصرف صاحـب الصيدليـة وتـرك هـاني حزينًـا منكـسرًا قبـل أن يستسـلم لقـرار فصلـه وينـصرف دون أن يُسَـلّم عـليَّ.

انـصرف هـاني وتركنـي مهمومًـا بعـد أن أصبحـت لـديَّ أمنيـة جديـدة لم أكـن أتخيـل أن أتمناهـا.. تركنـي هـاني وأنـا أتمنـى أن أعمـل بائـع (كيلوتـات).

تمت

الوجه الآخر

كان السبب الرئيسي لكراهيتي لأحمد عبدالوهاب هو أنه تلميذ متفوق، كنت أعتبره المنافس الوحيد لي في فصل 2/4 بمدرسة السادات الابتدائية المشتركة، كان تفوقه كافيًا _بالنسبةِ لي_ لكي أكرهه وأتعامل معه بتحفظ شديد لم يمنعني من الذهاب للعب معه أمام منزله بعد انتهاء أحد أيام الخميس الدراسية.

ورغم معرفتي بسبب كراهيتي لأحمد عبدالوهاب إلا إنني كنت دائماً أشعر أن منافسته لي في التميز أمام جميلات الفصل ليست وحدها وراء تلك المشاعر السلبية؛ فقد كان هناك سببًا خفيًا لم أدركه إلا عندما ذهبت معه في ذلك اليوم، لأرى شخص آخر غير الذي اعتدت على رؤيته في المدرسة.

كان يحرص (عبدالوهاب) على الظهور في المدرسة بمظهر الطالب المتفوق وما يلزمه ذلك من «كماليات» تُضاف إلى رصيده من الدرجات المرتفعة التي يحصل عليها في الامتحانات الشهرية، لم يكن يتشاجر مع أحد تشاجرًا معلنًا، أو يتلفظ بأي ألفاظ نابية من شأنها أن تخصم من درجات تميزه، وهو الحرص الذي تخلى عنه أثناء زيارتي له عند منزله؛ فوجدته منطلقًا متحررًا لدرجة الوقاحة والابتذال، سمعت منه ألفاظًا كنت أشمئز منها وأكاد أختنق عندما أسمعها في أي شارع أمر به، لذا عندما سمعتها منه كانت صدمتي كبيرة، فانتابتني مشاعر استنكار مختلطة بالذهول وعدم القدرة على تصديق ما يحدث.

ذهبت إلى منزلي متعجلًا والتفكير يكاد يقتُلني وسؤال واحد يُلح عليَّ بشدة:

- كيف؟! كيف يكون أحمد عبدالوهاب _التلميذ الذي عرفته شديد الأدب_ بهذه الدرجة من الوقاحة والانحطاط؟!

كنـت أحـاول أن أقنـع نفـسي أنـه _أحمـد عبدالوهـاب_ قـد قـرر في هـذا اليـوم أن يبـدأ حيـاة جديـدة عنوانهـا السـفالة وقلـة الأدب، عـلى خلاف حياتـه السـابقة التـي عرفتـه فيهـا، بذلـت محـاولات عـدة لإقنـاع نفـسي بذلـك، ولكنهـا بـاءت جميعًـا بالفشـل.

ومـر اليـوم التـالي طويـلًا ثقيـلًا، دون أن أصـل لإجابـة تريحنـي مـن عـذاب التفكـير في هـذه المأسـاة، أسـميتها مأسـاة لا لسـببٍ سـوى أننـي لم أجـد اسـمًا ملائمًـا لمـا يحـدث.

وجـاء يـوم السـبت الـذي سـأذهب فيـه إلى المدرسـة؛ فاسـتيقظت مبكـرًا، بعـد سـاعات نـوم متقطعـة، وأنـا أتعجـل الذهـاب لرؤيـة السـافل المنحـط كـما تعجلـت قبلهـا بأقـل مـن يومـين أن أتركـه بعـد أن شـاهدته شـخص آخـر غـير الـذي عرفتـه.

دخلـت مـن بـاب المدرسـة وأنـا أتفحـص الوجـوه باحثًـا عنـه ولم أجـده، حتـى انتهـى طابـور الصبـاح وذهبـت إلى الفصـل مـع باقـي الزمـلاء، عـلى أمـل أن أجـده جالسًـا في انتظارنـا، وهـو مـا لم يحـدث.
كاد رأسي ينفجـر مـما أسـميته سـوء حـظ، ومضـت الدقائـق الأولى مـن الحصـة رماديـة ثقيلـة، حتـى دخـل الوقـح الفصـل متأخـرًا، وسـمحت لـه المُدَرِسـة بالجلـوس دون عقـاب، معتـبرةً أن رصيـده مـن التفـوق الـدراسي و «الأخـلاق الحميـدة» يسـمح لـه بمـا هـو أكـثر مـن التأخـير.
بعـد مـرور نحـو عـشر دقائـق مـن جلوسـه، اسـتأذَنَت المُدَرِسـة للخـروج مـن الفصـل تاركـةً السـافل يقـف أمامنـا لـكي يكتـب اسـم مـن يُحـدِث شـغبًا في غيابهـا، وهـو مـا أصابنـي بالحنـق الشـديد معتـبرًا إسـناد تلـك المهمـة لـه الآن إهانـة بالغـة لي أنـا بالـذات.

مـرت دقائـق قليلـة وأنـا أكاد أمـوت غيظًـا، وأحـاول أن أسـتجمع شـجاعتي لأقـف أمـام كل التلاميـذ المغيبـين؛ لأعلنهـا صراحـةً؛ لأكشـف للجميـع حقيقـة هـذا الوغـد المخـادع وأحرضهـم عـلى الثـورة ضـد وضعـي البائـس، إلا إن القـدر الـذي اسـتجمعته مـن شـجاعتي لم يتـح لي سـوى أن أكسر قواعـد المُدَرِسَـة وأتحـدث بصـوتٍ مرتفـع، عـلى نحـو مـا، مـع (لا أحـد)، ليهـددني التلميـذ «المتميـز» بأنـه سـيكتب اسـمي في ورقـة المذنبـين، وهـو مـا جعلنـي أستشـيط غضبًـا وأقـف متحديًـا سـاخطًا لأسـبه بأمـه سـبابًا مـن تلـك النوعيـة القـذرة التـي سـمعتها منـه يـوم الخميـس البائـس، قُلتهـا لـه معلنًـا التحـدي:

- مالكش دعوة بيَّا يا ابن الـ ****

وكانـت المفاجـأة للجميـع، للتلاميـذ، وللمُدرسـة عندمـا عـادت، ولأبي عندمـا تـم اسـتدعاؤه للمدرسـة، وحتـى أحمـد عبدالوهـاب نفسـه فوجـئ مـن سـبي لـه بهـذا اللفـظ في المدرسـة، وداخـل الفصـل، وعـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع.

مـرت بضعـة أيـام ثقيلـة بائسـة بعـد أن سـببته بأمـه بذلـك اللفـظ _الـذي لم أكـن أعـرف معنـاه_ لأصبـح محـل احتقـار الجميـع، ويصبـح هـو في مكانـةٍ أعـلى مـما كان عليـه، فهـو التلميـذ المتفـوق المـؤدب الـذي لا يـرد عـلى إسـاءة وقحـة مـن شـخص سـافل مثـلي.

تمت

هاتف

كانـت ظـروفي المادية في هـذه الفـترة تسـمح لي بإقراضـه مبلـغ الألفـي جنيـه لـكي يشـتري هاتفًـا جديـدًا؛ فلـم أتـردد عندمـا طلـب منـي المبلـغ، رغـم قناعتـي بأنـه يجـب ألا يشـتري هاتفًـا بخمسـة آلاف جنيهًـا طالمـا كانـت إمكانياتـه لا تسـمح.

أقرضـت صديقـي صابـر المنيـاوي المبلـغ عـلى أن يسـدده لي عـلى دفعـاتٍ شـهرية. وعندمـا جـاء أول الشـهر الجديـد انتظـرت أن يتصـل بي يطلـب مقابلتـي ليسـدد لي جـزءًا مـن المبلـغ، ولكنـه لم يفعـل حتـى عندمـا قابلتـه بعـد ذلـك بأيـامٍ قليلـة عـلى المقهـى.

جلسـنا في هـذه الليلـة لأكـثر مـن سـاعتين مـع صديقنـا محمـد عاطـف الـذي أعطـاني مائتـي جنيـه هـي آخـر دفعـة شـهرية مـن الألفـي جنيـه التـي كان قـد اقترضهـا منـي قبـل نحـو عـام.

أخـذت المائتـي جنيـه مـن محمـد عاطـف وأنـا أختلس نظـرة بطرف عينـي لصابـر منتظـرًا أن يسـدد لي جـزءًا مـن المبلـغ المسـتحق عليـه، أو حتـى يعتـذر لي عـن قدرتـه عـلى التسـديد هذا الشـهر، ولكنـه لم يفعل!

قابلتـه أكـثر مـن مـرة خـلال الشـهر ولا جديـد، لدرجـة أننـي اعتقـدت أنـه نـسي أمـر النقـود، فتحدثـت لمحمـد عاطـف عـلى تطبيـق (فيسـبوك ماسـنجر):

- بقول لك إيه، صابر ماقالكش حاجة ع الفلوس بتاعتي؟

- هو ما دفعلكش منها حاجة ولا إيه؟

- لأ، وماقالش أي حاجة.

- طب ما كنت تسأله.

- اتكسفت بصراحة.

- امممم، طب استنى كده كام يوم لحد ما يقبض لأنه أكيد مش معاه فلوس دلوقت.

انتظرت حتى جاء الشهر الجديد وقابلت صابر ومحمد عاطف على نفس المقهى الذي اعتدنا الجلوس به، وانتظرت، وانتظرت وعندما لم أجد جديدًا بشأن النقود سألت صابر بحرج:

- انت قبضت ولا لسه؟

- قبضت وصرفت يابني والله.

- يعني إيه؟

- دفعت إيجار الشقة، واشتريت خاتم دهب لأمي عشان عيد الأم، ومش عارف هكمل الشهر ازاي والله!

التزمت الصمت وأنا أفكر في السلسلة الفضية التي اشتريتها لأمي بمناسبة عيد الأم، ثم تبادلت نظرات حائرة مع محمد عاطف الذي سألني متعمدًا لفت انتباه صابر:

- أنا كده سددت لك كل الفلوس اللي عليَّا ولا فاضل فلوس تاني؟

قلت له:

- لأ كده خلاص.

تظاهر صابر بأنه لم يسمع حوارنا؛ فاستسلمت للانتظار حتى جاء الشهر الجديد، وتكرر الأمر ذاته.. تجاهُل من جانبه وخجل من جانبي ومحاولات من جانب محمد عاطف للفت انتباهه إلى ضرورة تسديد المبلغ أو على الأقل جزءًا منه.

- لأ قول له أنا محتاج فلوس.. هو هيفضل نايم كده؟!

كتبها محمد عاطف في رسالة لي على تطبيق (واتساب) بعد مرور أكثر من خمسة شهور دون أن أحصل على جنيه واحد من صابر، فرددت عليه قائلًا:

- طب معلش ما ينفعش انت تقول له؟

- أنا قلت له والله أكتر من مرة، وكل مرة يقول لي حاضر وبعد كده يطنش، كلمه قول له أنا محتاج فلوس.

شعرت بغضبٍ شديد وعقدت العزم على الانتظار لأول الشهر حتى يحصل صابر على راتبه لأطالبه بتسديد جزء من المبلغ مع أخذ موعد منه لتسديد الجزء المتبقي.

ويبدو أنه توقع مني مطالبته بالنقود بشكلٍ صريح فأخذ خطوة استباقية وأرسل لي رسالة يقول فيها إنه حصل على مرتبه بالأمس وكان ينوي تسديد جزء من النقود لي ولكن المرتب سُرق منه بأكمله في مترو الأنفاق.

استشطت غضبًا وأنا لا أصدق ما يقوله، وانتظرت قبل نهاية الشهر بأيامٍ قليلة وقلت له _عندما قابلته_ بلهجةٍ غاضبة حاولت السيطرة عليها:

- أول ما تقبض بقى تبقى تسدد لي الفلوس بتاعتي عشان محتاج أشتري حاجات للبيت.

رد عليَّ بضيق:

- حاضر والله، فاكر.

واتصلت بمحمد عاطف وطلبت منه التأكيد على صابر بضرورة تسديد النقود، وعندما اقترب موعد حصوله على راتبه الشهري حاصرته بمكالماتٍ هاتفية ورسائل لكي لا يتجاهلني.

ويبدو أنه قد استنفذ طاقة التهرب مني، فوجدته يتصل بي عندما حصل على راتبه:

- آلو هتيجي تاخد الفلوس بتاعتك امتى؟ أنا قبضت أهو، هتيجي دلوقت ولا تستنى لما نتقابل ع القهوة؟

- لأ هاجي دلوقت، انت فين؟

- ماشي، تعالى لي ع القهوة اللي جنب بيتي.

- ماشي، هخلّص شغلي وآجي لك على طول.

انتهيت من عملي وتوجهت إليه رغم شعوري بالإرهاق الشديد، وفي الطريق اتصلت به لأؤكد عليه بعدم التأخر عليَّ، وخلال المكالمة سمعت صوتًا غريبًا قبل أن ينقطع الاتصال.

عاودت الاتصال به أكثر من مرة ولم يرد، فشعرت بغضبٍ شديد وتصارعت أفكار سوداء بداخل رأسي، ولم يكن أمامي سوى الذهاب إلى المقهى، وأنا أتوقع ألا أجده.

وصلت إلى المقهى ووجدته جالسًا وهو يبدو عليه الضيق، فجلست بجانبه وأنا أنظر له نظرة تساؤل رد عليها قائلًا:

- يا عم يخرب بيت فلوسك، الموبايل كان هيتسرق مني.

- ازاي؟

- وأنا بكلمك كنت جاي في الطريق واتنين راكبين موتوسيكل

كانـوا هيخطفـوه منـي.

- ازاي؟

- هـو إيـه الـلي ازاي؟! اتنـين عـلى موتوسـيكل واحـد سـايق والتـاني مسـك الموبايـل وشـده منـي، بـس مسـكت فيـه جامـد وماعرفـش يخطفـه.

ومد يده لي بالهاتف وتابع:

- شـايف؟ الشاشـة كانـت هتتكسر عشـان دُسـت عليهـا جامـد وأنـا بشـده مـن إيـده ابـن الحرامية.

انتابتنـي مشـاعر مختلطـة ولم أجـد مـا أقولـه، فأخـرج مـن جيبـه مبلـغ مـالي وأعطـاه لي:

- خد ألف جنيه أهو عشان تبطل زن.

أبيـت أن أتـرك لـه فرصـة للتهـرب منـي مـرة أخـرى؛ فوجهـت لـه سـؤالًا حاسـمًا:

- وهتديني الألف التانية إمتى؟

- هشوف بقى.

- مـش هتشـوف، الشـهر الجـاي أول مـا تقبـض؛ عشـان أنـا محتـاج الفلوس.

لم يرد عليَّ والتفت إلى نادل القهوة (الجرسون) وصاح بغضب:

- يا علي.. هات لي قهوة فرنساوي.

نظرت له وأنا لا أتوقع منه خيرًا، وعندما جاء الشهر الجديد لم يُخَيّب ظني، فقد تهرب مني لمدة أسبوع بعد حصوله على راتبه، وعندما قابلته قال لي عندما سألته عن المبلغ المتبقي:

- يا عم انت جاي تقول لي دلوقت؟ عايز فلوسك كنت تقول لي أول ما قبضت، إنما دلوقت مش معايا طبعًا.

حاولت أن أسيطر على غضبي وقلت له:

- ما أنا كنت بكلمك وانت مش بترد!

- كنت مسحول والله.

قلت له مستسلمًا:

- طيب، الشهر الجاي إن شاء الله.

أرسلت له رسالة بعد شهرين تقريبًا، كتبت فيها:

- يا صابر ما تخلينيش أندم إني سلفتك، أنا نَفسي مش جايب موبايل بـ5 آلاف جنيه، بس انت لما طلبت فلوس ما اتأخرتش عليك، ماينفعش بقى انت تتأخر عليَّا ده كله، أنا مش بشحت منك.

رأي الرسالة ولم يرد عليها إلا بعد مرور ساعتين، فكتب لي:

- حقك عليَّا يا عم، لو كنت أعرف كده ماكنتش استلفت منك.

- لو كنت تعرف ايه؟!

- يا عم خلاص قابلني ع القهوة النهارده بالليل عشان تاخد فلوسك.

- انت معاك فلوس دلوقت يعني؟

- لأ طبعا، بس هتصرَّف.

تغلبت على خجلي وكتبت له:

- طب هتيجي الساعة كام؟

- هجيلك 8 بالظبط.

ذهبت إلى المقهى قبل الموعد بنصف ساعة، وجاء هو في موعده وأخرج من جيبه ألف جنيه أعطاها لي وهو يبدو عليه الضيق، وقال:

- خد يا عم فلوسك أهي وأنا غلطان.

رفضت محاولاته لكي يُشعرني أنني المخطئ، فأخذت النقود ووضعتها في جيبي، وسألته:

- جيبت الفلوس منين؟

- يا عم مالكش فيه بقى، انت مش خدت فلوسك؟!

- ماشي، عايز أعرف اتصرفت منين برضه.

- استلفت من أختي.

دار بيننا ذلك الحوار وهو ما زال واقفًا، فقلت له:

- طب أقعد، انت هتفضل واقف كده زي اللي عنده تسلخات؟!

- لأ أنا همشي، مسافر البلد.

- ليه؟

- عادي.

- وهتيجي امتى طيب؟

- بكره ع الضهر كده.

انصرف وتركني وحيدًا حتى جاء محمد عاطف الذي حكيت له ما حدث، فضحك وقال لي:

- سيبك منه.

- ما أنا سيبتني، بس اتضايقت، بعد كل المماطلة دي عايز يطلعني أنا اللي وحش!

- كبر دماغك، وما تسلفهوش تاني.

- أكيد طبعًا، عمرها ما هتتكرر.

جلسنا لنحو ساعة قبل أن أذهب إلى المنزل وأنا أكاد لا أصدق أنني استرددت نقودي كاملةً، فنمت نومًا عميقًا، وعندما استيقظت في اليوم التالي، تصفحت موقع (فيسبوك) كالعادة، ففوجئت بمنشور من صابر كتب فيه:

- الحمد لله على كل شيء، الموبايل بتاعي اتسرق وأنا راكب القطار.

تمت

درس تاریخ

استطاع (محمد علي) أن يحقق رقمًا قياسيًا أبهرنا جميعًا عندما تحمل نحو 65 ضربة بالعصا على يديه من أستاذ عوض _مدرس العلوم_ ولم تفلت من عينيه دمعة واحدة رغم قوة الضربات وقسوتها.

وبقدر ما أبهرنا محمد علي بصلابته في ذلك اليوم، بقدر ما أثار سخريتنا في يومٍ آخر عندما فاجأ أستاذ جمال _مدرس التاريخ_ بسؤاله قائلًا:

- طب إحنا نعرف منين إن الناس اللي الكتاب بيحكي عنهم دول كانوا موجودين فعلًا؟

بالطبع كان السؤال مفاجئًا لنا ولمُدرس التاريخ الذي سخر من «علي» معتبرًا سؤاله إضافة جديدة تضاف إلى خيباته التي اعتاد أن يجنيها في الامتحانات الشفوية والتحريرية المعتادة. وسخر منه وأضحكنا عليه وشجعنا على السخرية منه نحن أيضًا، فكيف يجرؤ محمد علي _التلميذ البليد في الصف الثالث الإعدادي_ على التشكيك في وجود محمد علي باشا _مؤسس الدولة المصرية الحديثة_ وسعد باشا زغلول _قائد ثورة 1919_ والملك مينا _ موحد القطرين_ وغيرهم من عظماء التاريخ؟!

نحن جميعًا متأكدون من أنهم كانوا موجودين وفعلوا ما ذكرت كتب التاريخ أنهم فعلوه، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكذب كتب التاريخ وتختلق أحداث وشخصيات غير حقيقية، الأمر غير قابل للشك إذن.

وحتى بعد أن تجرأ محمد علي وسأل سؤاله الغريب لسنا بحاجة حتى إلى مجرد التفكير في سؤال تلميذ بليد كنا نتنبأ له

بالالتحـاق بمدرسـة الصنايـع الثانويـة مـع أقرانـه مـن الفاشـلين.

ومـرت السـنة الدراسـية بأحداثهـا المعتـادة ومحمـد عـلي يُضحكنـا مـن وقـتٍ لآخـر بأسـئلته المدهشـة، حتـى أنهينـا عامنـا الـدراسي الأخير بالمدرسـة الإعداديـة والتحـق معظمنـا بالمـدارس الثانويـة العامـة.

في الشـهورِ الأولى لي بالمدرسـة الثانوية قابلت محمد علي مصادفةً في الشـارع، وابتسـمت رغـمًا عنـي قبل أن أسـأله عن المدرسـة التـي التحق بهـا، وأنـا شـبه متأكـد مـن أنهـا مدرسـة صنايـع، ولكنـه فاجـأني بقولـه:

- أنا دخلت تالتة إعدادي.

لقـد رسـب محمـد عـلي، وعلمـت منـه أنـه الراسـب الوحيـد مـن بـين جميـع الزمـلاء في صفنـا الثالـث الإعـدادي.

***

بعـد مـرور بضـع سـنوات، وخـلال دراسـتي الجامعيـة بكليـة التجـارة الخارجيـة، كنـت مطالبًـا بعمـل بحـث أجـبرني عـلى قـراءة كتـاب سـياسي يحـوي بعـض المعلومـات التاريخيـة، فوجئـت في أحـد فصـول الكتـاب الـذي كان يتحـدث عـن العـدوان الثـلاثي عـلى مـصر عـام 1956 بمعلومـة تفيـد بـأن (أيزنهـاور) _رئيـس الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في ذلـك الوقـت_ هـو مـن أجـبر العـدوان الثـلاثي عـلى الانسـحاب مـن مـصر، هـذا مـا ذكـره الكتـاب الـذي قـام بتأليفـه عـالم تاريـخ معـروف، وهـو الأمـر الـذي كان بمثابـة صدمـة بالغـة لي أفقدتنـي تـوازني وجعلتنـي أرجـع إلى كتـب التاريـخ التـي درسـتها في المدرسـة، والتـي تؤكـد أن المقاومـة الشـعبية الباسـلة لشـعب بورسـعيد هـي مـن نجحـت في طـرد العـدوان الثـلاثي مـن مـصر.

وهنـا رُحـت أفكـر لأول مـرة في هاتـين المعلومتـين المتناقضتـين، المعلومـة الثانيـة تجـزم بـأن (أيزنهـاور) هـو مـن أجـبر العـدوان الثـلاثي عـلى الانسـحاب، ويوضـح الكاتـب سـبب قيامـه _أيزنهـاور_ بذلـك، فقـد كان يميـل في ذلـك الوقـت لكفـة لعـرب ضـد إسرائيـل التـي يعتقد أن العـرب سـيغرقونها في البحـر بمنتهـى السـهولة.

أمـا عـن المعلومـة الأولى فهـي أشـبه بأحـداث بعـض الأفـلام الهندية أو فيلـم (300) المبنـي عـلى أحـداثٍ أسـطورية، فكيـف يسـتطيع شـعب بورسـعيد المـدني بأسـلحته الخفيفـة أن يطـرد إسرائيـل وفرنسـا وبريطانيـا التـي كانـت عظمـى في ذلـك الوقـت؟! وكيـف صدقـت أنـا هـذه المعلومـة وتقبلتهـا دون أن أفكـر فيهـا ولـو لدقيقـةٍ واحـدة؟! كيـف لم أسـتيقظ مـن سـباتي العميـق عندمـا سـأل محمـد عـلي سـؤاله الجهنمـي؟! لمـاذا وثقـت في كتـب التاريـخ هـذه الثقـة العميـاء وكأنهـا كتبًـا سـماوية مـن عنـد اللـه؟!

أسـئلة كثـيرة دارت في رأسي وأنـا أتذكـر محمـد عـلي ولا أملـك إلا الشـعور بالنـدم عـلى سـخريتي منـه وأتمنـى أن أقابلـه لأعتـذر لـه عـما بـدر منـي في حقـه عندمـا فعـل مـا كان يجـب علينـا جميعًـا أن نفعلـه.

تمت

مطعم أمريكاني

ما زلت أتذكره جيدًا.. ذلك الشاب النحيف، متوسط الطول، الذي كان متخرجًا من كلية دار العلوم، ويقف معي في طابور غير منظم أمام تلك الشركة التي توظف الطلبة والخريجين الجُدُد بالمطاعمِ الأمريكية.

- مش عايزين طَلَبَة، بناخد خريجين بس.

قالها الموظف الذي يقف أمام باب الشركة التي تحتل الطابق الأرضي من بناية مرتفعة بحي المهندسين، فصاح الشاب بلهفةٍ وهو يرفع يده بملف أوراق:

- أيوه يا باشا أنا خريج والله، الشهادة أهي.

نظر له الموظف وقال:

- خريج إيه؟

- خريج دار علوم.

قال الموظف بمزيجٍ من الدهشة والإجلال والتعاطف:

- يعني مُدَرِس؟! تعالى تعالى، وسعوا له.

اندفع الشاب بعدما أفسحنا له الطريق، واقترب من الرجل الذي قال له:

- خريج دار علوم وجاي تشتغل هنا؟!

واصطحبه إلى داخل الشركة وهو يسأله:

- تحب تشتغل ايه؟

رد الشاب برجاء:

-أي حاجة مش مهم.

كان مـن الطبيعـي أن أنـصرف بعدمـا قـال الموظـف إنهـم لـن يوظفـوا سـوى الخريجين، ولكننـي انتظـرت عـدة دقائـق عـلى أمـل أن يغـير رأيـه، أو ربمـا حتـى أرى الشـاب وهـو يخـرج سـعيدًا بعدمـا تـم قبولـه ليعمـل كـصراف (كاشـير) أو نـادل (جرسـون) في واحـدٍ مـن تلـك المطاعـم الفاخـرة.

مضـت عـشرون دقيقـة وأنـا أنتظـر، وعندمـا فقـدت الأمـل في حـدوث جديـد، انصرفـت وقـد بلـغ بي الحـزن غايتـه، لم أكـن حزينًـا فقـط لأننـي لم أحصـل عـلى عمـل، بـل لأن الشـاب سـيحصل عـلى وظيفـة أقـل كثـيرًا مـما يسـتحق.

عُـدت إلى المنـزل فوجـدت عـلى شاشـة التلفـاز برنامـج يقدمـه فنان مشـهور مـع ابنتـه؛ فغـيرت ملابـسي سريعًـا وجلسـت أتابـع البرنامـج لـكي أتخلـص مـن الحـزن الـذي حـل بي.

كان البرنامـج يعتمـد عـلى أن يسـتضيف الفنان وابنته بعـض الفنانين ويناقشـوا موضـوع مـا، وكان موضـوع تلـك الحلقـة عـن قيمـة العمـل.

مـرت بضـع دقائـق وأنـا أشـاهد الحلقـة دون تركيـز، إلا إن حـواسي تنبهـت عندمـا وجـدت الفنـان _مقـدم البرنامـج_ وهـو يتحـدث مـع ضيفيـه، الممثـل الخمسـيني والممثلـة السـتينية ذات الشـعر الأصفـر المصبـوغ، وينظـر بطـرف عينـه إلى الكامـيرا، ويقـول:

- وطبعًـا الشـباب لازم يتعلمـوا مـن الـكلام الـلي حضراتكـوا بتقولوه ده، لازم ينزلـوا ويشـتغلوا مايقعـدوش كـده، الشـغل موجـود بـس للأسـف في نـاس كتـير عايزيـن يبـدؤوا مديريـن وياخـدوا آلافـات.

ردت عليه ابنته _عديمة القبول_ كالببغاء، فقالت:

- آه طبعًـا، الشـغل موجـود بـس للأسـف في نـاس كتـير عايزيـن يبـدؤوا مديريـن وياخـدوا آلافـات، مافيـش حـد عايـز يتعـب.

لم أحتمـل مـا أسـمعه، فأغلقـت التلفـاز ودخلـت إلى غرفتـي وخلـدت إلى النـوم ومازالـت صـورة الشـاب خريـج كليـة دار العلـوم تطـاردني.

تمت

قهوة سادة

العمـل سـاعتين يوميًـا، خمسـة أيـام في الأسـبوع، والراتـب 296 دولار شـهريًا، يتـم تحويلهـا بـ حوالـةٍ قـد تتأخـر أحيانًـا، أو غالبًـا، ولكنهـا تصـل عـلى أي حـال، وهـذا هـو المهـم.

وأخـيرًا تذوقنـا طعـم الأمـوال الخليجيـة بعدمـا اختارنـا مديرنـا اللبنـاني السـابق (إيميـل) للعمـل معـه كمحـرري أخبـار ترفيهيـة، أنـا وصديقـي (عـلي) الـذي كان يوصـف مثـلي بـ (حـمار شـغل).

ولأن الحيـاة لا تجـود عـلى الحمـير سـوى بحفنـة برسـيم؛ فقـد فاجأنـا المديـر اللبنـاني في أحـد الأيـام القاتمـة برسـالةٍ عـلى البريـد الإلكـتروني يخبرنـا فيهـا بقـراره تـرك العمـل في هـذا الموقـع الإخبـاري الـذي أتـاح لنـا العمـل فيـه السـفر إلى الخليـج دون أن نتزحـزح مـن بلدنـا، أو نضطـر إلى تـرك عملنـا الأسـاسي في الموقـع الآخـر الـذي كنـا نبـذل فيـه مجهـودًا أكـبر ونتقـاضى راتبًـا أقـل.

وطالمـا قـرر مديرنـا _الـذي أتى بنـا للعمـل معـه في الموقـع_ تـرك العمـل فرسـالته معناهـا واضـح.. انتهـت فـترة عملنـا نحـن أيضًـا.

وعـلى الرغـم مـن وضـوح الرسـالة إلا إننـا أبينـا أن نصـدق أننـا سـنخسر ذلـك الراتـب (الـدولاري)؛ فسـألناه بشـكلٍ غـير مبـاشر عـن مصيرنـا، فأوضـح لنـا أننـا يمكـن أن نسـتمر. لم تكـن إجابتـه واضحـة بقـدرٍ كافٍ ولكننـا افترضنـا _كـما تمنينـا_ أننـا لـن نرحـل معـه.

وعـلى الرغـم مـن حالـة الضيـق والقلـق التـي سـيطرت علينـا، إلا إننـا بذلنـا مجهـودًا مضاعفًـا في العمـل وكأننـا نوصـل رسـالة لإدارة الموقـع نقـول فيهـا: لا تتخلـوا عنّـا.

ولأن صاحـب الموقـع أراد توفـير النفقـات؛ فقـرر أن يُرَقـي زميلتنـا

الفلسـطينية، التـي تعيـش في دبي، لتصبـح مديرتنـا بـدلًا مـن تعيـين مديـر آخـر.

أرسـلت لنـا (رنـا) رسـالة عـلى البريـد الالكـتروني تقـول فيهـا إنهـا أصبحـت المديـرة المسـئولة، موضحـةً أن العمـل سيسـتمر مـع بعـض التعديـلات البسـيطة.

أرادت المديـرة الجديـدة أن تثبـت أنهـا أفضـل مـن المديـر اللبنـاني؛ فطاردتنـا بتعليماتهـا البلهـاء التـي كنـا مضطريـن لتنفيذهـا حفاظًـا عـلى رواتبنـا.

وعـلى الرغـم مـن التزامنـا بكافـة التعليـمات _التـي لم تكـن هـي نفسـها تلتـزم بهـا_ إلا إنهـا فاجـأت (عـلي) في نهايـة شـهر أغسـطس، وبعـد ثلاثـة أشـهر مـن تعيينهـا مديـرة، برسـالة عـلى تطبيق (واتسـاب) تخـبره فيهـا عـن قـرار إدارة الموقـع بالاسـتغناء عنـه، دون توضيـح أسـباب.

جـاءت الرسـالة لعـلي وهـو في طريقـه إلى العمـل، بينـما كنـت أنـا في الشركـة أمـارس عمـلي، فأرسـل لي رسـالة كتـب فيهـا:

- عامل إيه؟

- الحمد لله.

- عملت شغل للموقع الإماراتي النهارده؟

- آه، خلصت شغلي من شوية.

- طب هي رنا ماكلمتكش النهارده؟

- لأ، ليه؟

- لما آجي بقى هفهمك.

شعرت بقلقٍ شديدٍ وانتظرت (علي) حتى وصل الشركة بوجهٍ مكفهر وهو يحاول أن يبتسم.

نظرت إليه بترقب فقال لي:

- تعالى نخرج نشرب سيجارة في البلكونة.

خرجت إلى الشرفة وانتظرته حتى جاء إليّ وسألني مرة أخرى:

- رنا كلمتك؟

- لأ، هو في حاجة ولا إيه؟

- طب كويس، أصلها كلمتني وقالت لي إن آخر يوم ليا في الشغل النهارده.

وقع الخبر على رأسي كالصاعقة ولم أقوى على الكلام، فتابع وهو يحاول أن يبدو هادئًا:

- أنا كنت متوقع إنهم هيمشوني بعد ما (إيميل) مشي، فبالنسبة لي عادي يعني، وكويس إني كملت معاهم 3 شهور.

حاولت أن أتكلم ولكن صدمتي منعتني، فأخرجت هاتفي من جيبي ونظرت به بقلق، فقال لي:

- بعتت لك؟

- لأ.

- كويس، يبقى انت كده مكمل معاهم، ما تقلقش أنت بتعمل لهم شغل كويس وأخبار أكتر من اللي مطلوبة، أنا ماكنتش

مركـز قـوي معاهـم عشـان شـغلي هنـا وفي الموقـع السـعودي، طالمـا مـا بعتتلكـش يبقـى مافيـش خـوف، وممكـن تكلمهـا برضـه تجـس النبـض.

قلت له وأنا أحاول أن أبدو هادئًا:

- لأ مش هكلمها، أنا هشتغل عادي وأستنى.

حاولـت أن أبـدو متماسـكًا بقـدر الإمـكان، ولكـن تفكـيري في التزامـاتي المادية الجسـيمة جعلنـي أفقـد أعصـابي وأرسـل لهـا رسـالة لأسـألها عـن مصـيري، فطمأنتنـي وأكـدت لي أننـي مسـتمر في العمـل، فكتبـت لي:

- محمد شغلك ممتاز وأنت مستمر معنا.

شعرت ببعض الطمأنينة، ولكنني سألتها مرة أخرى:

- يعني الدنيا تمام وأنا مستمر عادي؟

- أكيد، أنت شغلك ممتاز.

- طـب لـو حصـل أي حاجـة وكان في نيـة للاسـتغناء عنـي، ياريـت تعَرَفِينـي قبلهـا بفـترة كافيـة عشـان أرتـب أمـوري.

- لا تقلق محمد.. شغلك ممتاز.

كان مـن الطبيعـي أن أطمـئن بعـد محادثتـي معهـا، ومـع ذلـك ساورني قلـق بـدأ يتـلاشى تدريجيًـا عندمـا مـر شـهر وثـاني وثالـث وأنـا مسـتمر في العمـل، وعندمـا تـلاشى القلـق تمامًـا فوجئـت برسالة مـن (رنـا) عـلى تطبيـق (واتسـاب) في آخـر سـاعة مـن شـهر نوفمـبر تخـبرني فيهـا بقـرار إدارة الموقـع بالاسـتغناء عنـي.

قرأت الرسالة ولم أصدق، ليس فقط بسبب أنها طمأنتني أكثر من مرة، ولكن بسبب أنها انتظرت حتى آخر ساعة في الشهر لتبلغني وكأنها أرادت أن تجعلني أشعر بمزيدٍ من الحسرة والألم.

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة السوداء، ولم أذهب إلى عملي في اليوم التالي، كانت الصدمة مضاعفة فأفقدتني توازني، وشعرت بحزنٍ بالغ مختلط بالغيظ. ولأن الوحدة تجعل الأحزان تتضاعف فكان من الطبيعي أن أبحث عن أصدقائي لكي أتحدث معهم، فقط أتحدث وأُخرِج شحنة الغضب التي جعلتني أشعر بأنني على حافة الانفجار.

أمسكت هاتفي الملعون وأرسلت لهما رسالة على (جروب) تطبيق (فيسبوك ماسنجر):

- هتعملوا إيه النهارده؟

رأى صابر رسالتي ولم يرد، فأرسلت رسالة أخرى:

- هتروحوا القهوة؟

رأى صابر الرسالة ولم يرد أيضًا؛ فأرسلت رسالة جديدة:

- أنا مخنوق جدًا وعايز أخرج.

رأى محمد عاطف الرسالة، ورد عليَّ:

- ماشي يلا، الساعة كام؟

- 7، ولا أقول لك 6.

وصلت المقهى في تمام السادسة وانتظرت نحو عشر دقائق حتى وصلا معًا وجلسا بهدوء.

كنت أنتظر سؤالًا منهما عن سبب ضيقي، خصوصًا أن وجهي يعكس مشاعري، ولكنهما لم يسألا، فتضاعف غيظي ونظرت لهما بدهشة واستنكار.. لقد لجأت إليهما عندما شعرت بالعجز وحاصرني الحزن من كل اتجاه!

انتظرت نحو دقيقتين متلهفًا على سؤالٍ منهما عن سبب ضيقي، وعندما تجاهلاني بدأت أحكي أنا عما حدث موضحًا صدمتي وغيظي من تلك المديرة التي غدرت بي وفصلتني من العمل لكي تعين شقيق صديقتها بدلًا مني _كما عرفت بالصدفة_ وقبل أن أنتهي قاطعني صابر قائلًا:

- عايز أبيع الموبايل اللي معايا ده، حد يشتريه؟

نظرت له بحنق وقلت:

- يعني أنا بتكلم في حاجة مهمة تقاطعني كده؟!

رد عليَّ بلا مبالاة:

- ما إحنا خلاص عرفنا يا عم إنهم مَشُوك من الشغل، هتفضل بقى تحكي وتنكد علينا؟ مش عايزين نكد إحنا.

كان رده صادمًا فالتزمت الصمت، وجاء عماد، نادل المقهى، وسألنا:

- هتشربوا إيه؟

كنت في العادة أشرب (نسكافيه)، وأضع على الكوب الصغير أربع ملاعق من السكر لكي أقضي على مرارته تمامًا، ولكنني وجدت نفسي أقول له دون تفكير:

- أنا هشرب قهوة.

نظر لي صابر بدهشة وقال:

- انت من امتى بتشرب قهوة؟!

نظرت له لائمًا والتفتُّ لعماد وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أقول له بحزن:

- قهوة سادة.

تمت

الصف الأخير

حـرص أبي ولمُـدةِ أربـع سـنوات _هـي الأولى لي في المدرسـة الابتدائيـة_ عـلى التأكيـد عـليَّ بـضرورة الجلـوس في الصفـوف الأماميـة في الفصـل، باعتبارهـا صفـوف التلاميـذ المتفوقـين كـما هـو متعـارف عليـه بالنسـبة لأوليـاء الأمـور ومـن ثَـم بالنسـبةِ لنـا كتلاميـذ، لـذا كنـت أحـرص حرصًـا _ليـس شـديدًا_ عـلى تنفيـذ تعليماتـه، فـكان الصـف الثـاني أو الثالـث _عـلى أقـصى تقديـر_ مـن نصيبـي بجانـب أحـد الزمـلاء، حتـى جـاء ذلـك اليـوم الـذي عَلِمَـت فيـه مُدَرِسـة اللغـة العربيـة أننـا بصـدد زيـارة، غـير مُرَحَّـب بهـا، مـن مُوَجِـه المـادة الـذي كان يُقَيّـم أداءهـا بنـاءً عـلى مسـتوانا نحـن التلاميـذ، وفجـأة سَرَت في الفصـل حركـة غـير عاديـة يشـوبها الارتبـاك.

طَلَبَـت المُدَرِسـة مـن بعـض التلاميـذ _وأنـا منهـم_ تغيـير أماكـن جلوسـهم، فتلقيـت أمـرًا مفاجئًـا بـأن أجلـس في الصـف الأخـير، وهـو الأمـر الـذي اعتبرتـه إهانـةً بالغـةً باعتبـار أننـي كنـت أُعـد مـن المتفوقـين، فكيـف لهـا إذن أن تعاملنـي بمثـل هـذا الاحتقـار وتطلـب منـي الجلـوس في مـكانٍ يعـرف الجميـع أنه مخصـص للتلاميذ الفاشـلين دراسـيًا وأخلاقيًـا!

كـدت أعـترض عـلى مـا طلبتـه منـي، ولكـن حالـة الارتبـاك التـي سـادت الفصـل لم تعـط لي مجـالًا لمناقشـة المهزلـة التـي تحـدث؛ فحملـت حقيبتـي عـلى مضـض وتوجهـت للصـف الأخـير بخطـواتٍ ثقيلـة وأنـا لا أرى أمامـي سـوى خيـالات لتلاميـذ لم أسـتطع تمييـز ملامحهـم بدقـة، حتـى وصلـت للصـف الأخـير وجلسـت مـكان طالـب فاشـل وبجانـب آخـر مثلـه يُدعـى أحمـد أمـين يونـس.

وبـدأت المُدَرِسـة تـشرح لنـا خطتهـا الماكـرة التـي كانـت تحـاول

بها أن تخدع الموجه، وهي أن تُجلِس بعض التلاميذ المتفوقين في الصفوف الأخيرة، التي ينوي الموجه اصطياد فرائسه الفاشلين منها، وعندما يسأل واحدًا من المتفوقين يجيب، وعندما يسأل فاشلًا يقوم المتفوق الذي يجلس بجانبه بتلقينه الإجابة دون أن يلاحظ أحد.

كنت دائمًا ما أنظر إلى أحمد أمين يونس باعتباره شخص من عالم آخر، فملابسه دائمًا رثة غير مهندمة وحقيبته لا تختلف كثيرًا عنها وعن وجهه الذي كنت أراه متربًا غير مريح على الإطلاق.

جلست بجانب أحمد أمين وأنا أتعجل مرور الدقائق ليأتي الموجه وينهي مهمته اللعينة، وجاء بالفعل وسأل أحمد أمين يونس سؤالاً استطعت أن ألقنه إجابته دون أن يلاحظني الموجه الذي سعد كثيرًا بمستوى الفصل الذي استطاع أحد تلاميذ صفوفه الخلفية أن يجيب على سؤال منه، وفرحت المُدَرِسة وفرحت أنا أيضًا بقدرتي على أداء الدور المطلوب مني، وبدأت أستريح في جلستي، وأنظر حولي لأكتشف المكان الذي ما كنت أتخيل نفسي جالسًا فيه أبدًا.

نظرت إلى أحمد أمين وأنا فخور بقدرته على غش الإجابة مني بسهولة، وانتقلت بنظري لتلميذٍ آخر وآخر وآخر، انتقلت بنظري على جميع التلاميذ بما فيهم حسن محمد جمعة الجالس في مكاني، وبدأت أكتشف سحر مكاني الجديد الذي أستطيع وأنا جالس فيه رؤية كل التلاميذ ومتابعتهم بشكلٍ جيد، كما أنني أستطيع التحدث مع الزملاء القريبين دون أن يلاحظني أي مدرس أو مدرسة.

خـرج مُوَجِـه اللغـة العربيـة وهـو سـعيد مـن مسـتوى التلاميـذ، واصطحبتـه المُدَرِسـة وعـادت إلينـا وأعـادت كل تلميـذ إلى مكانـه، فوجـدت نفـسي أجلـس في مـكاني الأصـلي مقيـدًا حتـى انتهـت الحصـة.

انتهـى اليـوم الـدراسي وذهبـت إلى المنـزل وأنـا أفكـر فيـما حـدث لدرجـة أننـي لم أسـتطع النـوم جيـدًا، فقـد كنـت أتعجـل الذهـاب للمدرسـة التـي لم أكـن أحبهـا كثـيرًا.

ذهبـت إلى المدرسـة في اليـوم التـالي وأنـا أتعجـل انتهـاء طابـور الصبـاح الـذي كنـت أنظـر لـه دائمًـا باعتبـاره عقابًـا يوميًـا. وذهبنـا إلى الفصـل، وحرصـت عـلى أن أكـون أول مـن يدخلـه حتـى أسـتطيع الوصـول إليـه بسرعـة.. إلى المقعـد الأخـير.

اندفعـت إلى بـاب الفصـل، وهرولـت ناحيـة المقعـد الأخير وجلسـت عليـه، وطلبـت مـن حسـن محمـد جمعـة أن يجلـس في مكاني، جلسـت بجانـب أحمـد أمـين يونـس.. جلسـت وأنـا أتحـسر عـلى الثلاث سـنوات التـي أضعتهـا حبيسًـا مـا بـين الصفـين الثـاني والثالث.

تمت

«أي تشابه بين شخصيات وأحداث هذه الأعمال وأية شخصيات وأحداث على أرض الواقع هو مجرد صدفة غير مقصودة»

محمد شريف

للتواصل مع الكاتب

mohamedsharif1987000@gmail.com

أعمال أخرى للكاتب

بنات عائلات محترمات (مجموعة قصصية)

بتوع الأفلام (مقالات فنية)

الخوف (مجموعة قصصية)

تذكرة سينما (مقالات فنية)

الفهرس

قميص مشَجَّر.. 5
عباس المجروح.. 11
شيفت مسائي 15
الجاسوس.. 23
قهوة سُكَر زيادة 31
الامتحان.. 35
ربطة عنق 43
كلب المدير 47
مدرسة حكومية.. 53
الثلاجة.. 61
أمنية جديدة.. 67
الوجه الآخر.. 77
هاتف.. 83
درس تاريخ 93
مطعم أمريكاني 99
قهوة سادة 105
الصف الأخير 115
أعمال أخرى للكاتب... 125